فوزية مهران

جياد البحر



الكتاب الذهبى مــارس ١٩٨٧

يصدر عن :

مؤسسة روزاليوسف

رئيس مجلس الإدارة

عبدالعزيز خميس

العضو المنتدب

سعاد رضا

المستشار الفنى

جمال كامل

رئيس التحرير

عادل فهيم

المشرف الفنى

مارى ميخائيل

العنوان القاهرة - مؤسسة روز اليوسف

٨٩ (أ) شارع قصر العينى ت

٣٥٤٠٨٨٨ - ٣٥٤٠٨٨٧ - ٣٥٤٧٨٥٦

مكتب الإسكندرية شارع كنيسة

دبانه ت ٨٠٧٢٤٠ - ٨٠٩٢١١ -

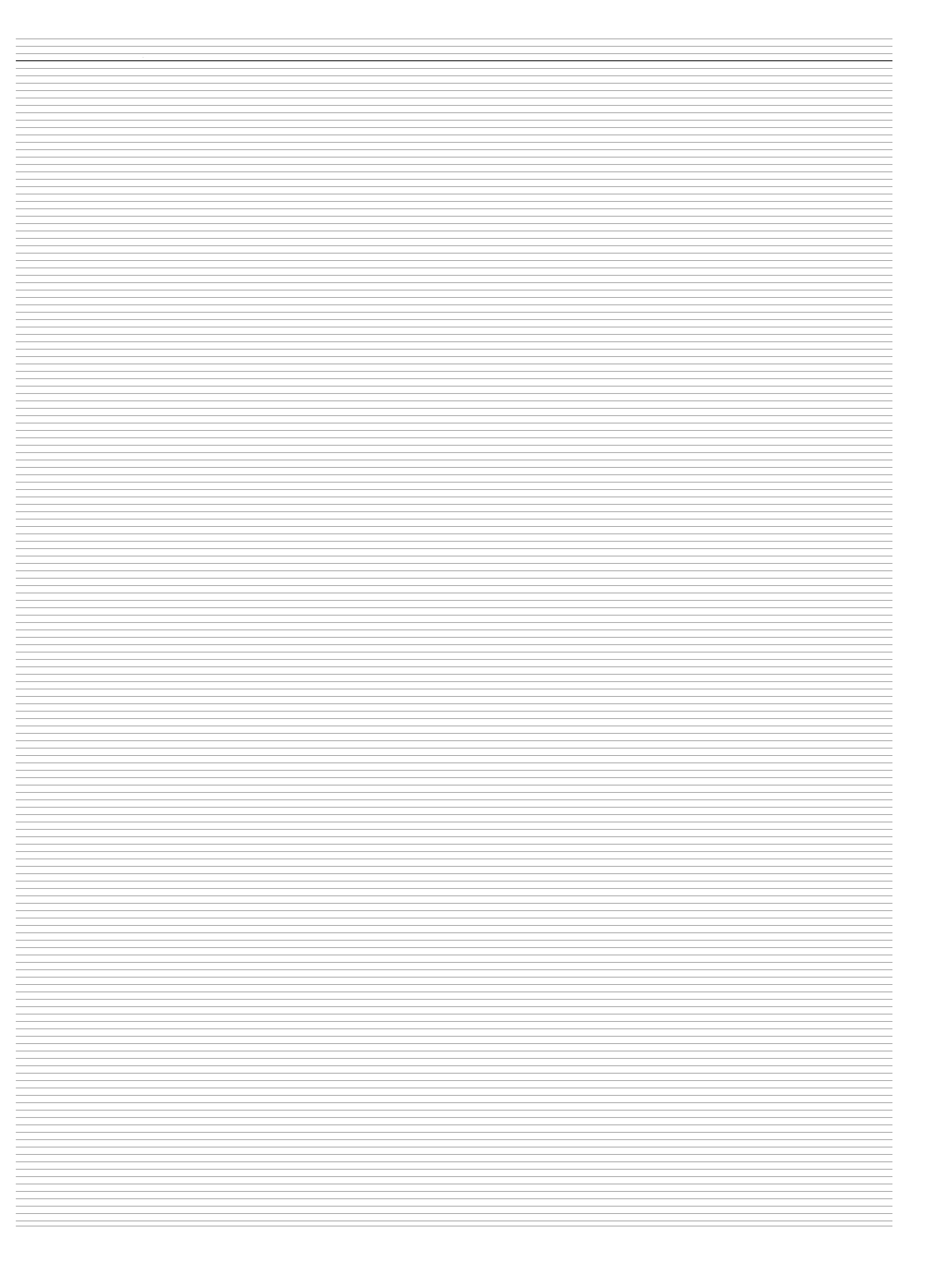
٨٠٩١٣٤

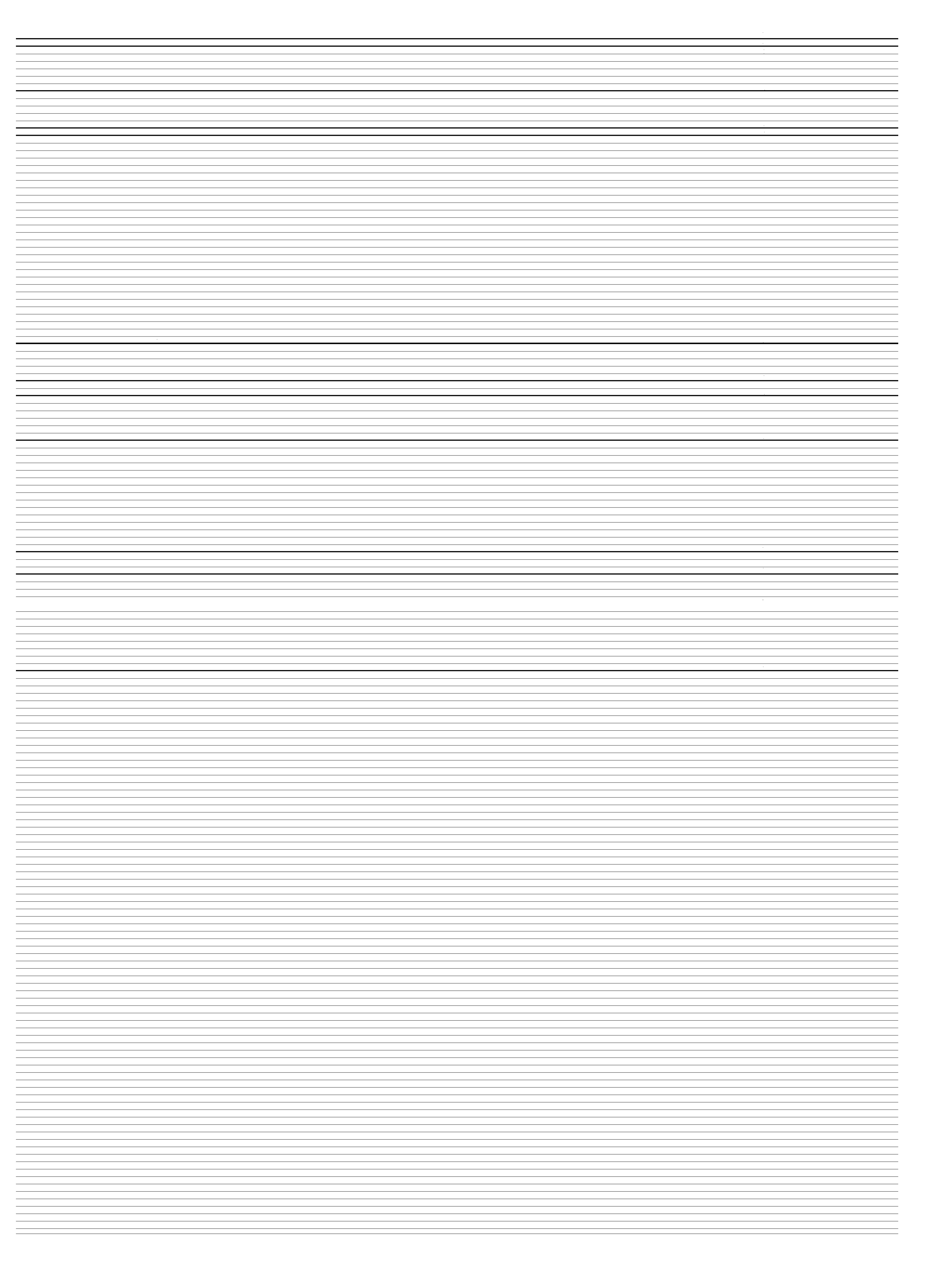
المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات بالاتفاق مع الإدارة

الغلاف للفنان

محمد طراوى

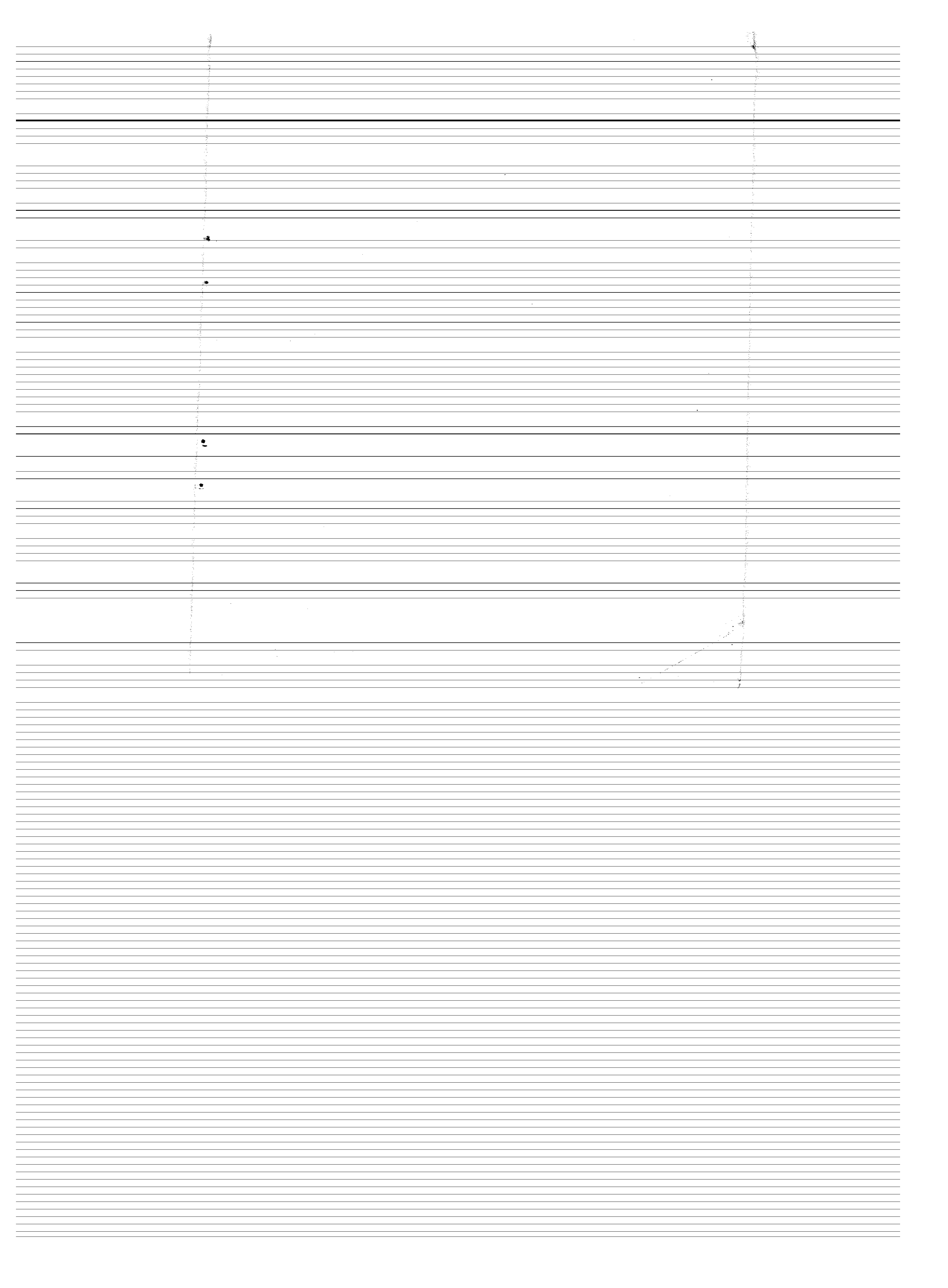




اهــــداء

الى البحر ..
(ولدت بجانبه .. تأملت حـــركته ..
وتعلمت اقامة الكلمات)
الى البحر ..
(الوسع فيه والانسان .. أقيم مسرحى
الخاص والعام)
البحر الجميل .. حيث الموج يمد بنا الى
المبدىء المعيد
البحر العميق .. نرى وجه شعبنا فيه ..
البحر المحيط .. بآفاق أمتنا العربية .
البحر القاموس .. انسان مصر البسيط
بحر النيل .. منه واليه الابحار والرحيل
بحرى الخـــاص .. الحبيب والزوج
الشهيد .
الـــى البحر العظيم ـــ مرشد علام .

فوزية مهران



— ١ —

أطل من فوق حاجز السفينة فى قلب بحـــــر لجى .. بحر العرب المائج نخب فيه ..
البحر الاحمر وشعابه المرجانية المشرعة .. نسلم فيه انفسنا لملك الظلمات والنور .. ونركن الى النجاة أو الفرار .

أعرفه ومنذ كنت صـــــغيرة .. ومن بدايته « اقرأ » .. أرقبه بحذر ورهبة على الخريطة ..
وصوت أبى يتلو القرآن ..
« واذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم واغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون »

نبحث فى البحر الدامى عن سفين نجاة .. معجزة خلاص .. نسلم أنفسنا لراحة التأمل من بعيد .. فى التيه الممتد ..
يمكن جمع الشـــــتات .. يحول الموج بيننا وكل الشرور والآثام ..

المحن والبلاء نقذف بها فى جوف البحر .. نعود ذرة صغيرة فى صلب ذلك الأب العتيد .. نولد من جديد .. نعود الى عصر بعيد .. فى التيه الممتد ..
البراءة والنقاء ..

لم يعد أمامنا سوى الذهاب الى تلك الرحلة العسيرة ..
ننازل أسماك القرش .. نقاوم كل الافواه الضالة والحيتان ..
وقد نتبع الدلفين وننجـــذب معه الى مرفأ نجاة .. ونؤدى
بجانبه رقصة الماء .

عن ارادة نسلم أنفسنا للحظات هروب ونسيان .. رحلة
تدريب على فن البحر .. وعلوم المناورة والنزال (لا أدرى لم
أحسست انى مقدمة على مرحلة جديدة من حياتى .. لم تعد
تلائمنى تلك الحيـــاة الداجنـــة .. أتوق الى المغـــامرة
والاكتشاف) .

السفينة تدور بنا بين موانى البحر الاحمر .. تحمل الماء
والزاد للفنارات .. لمن اعتزلوا حياتنا وعاشوا بين السماء
والماء .. داخل ظروفهم النفسية .. وقوى الطبيعة العارية
**لم يعد الاقتصاد يمثل بؤرة الصراع .. لكن لديهم بلا شك
شجاعة الاعتزال)** .

مهمتهم الأساسية هى الابقاء على نور الفنار مشتعلا وحتى
يهتدى كل سفين مار .. والباحثين عن مرفأ وميـنـــاء ..
(مهمة انسانية على اية حال) .

قال استاذنا ــ ومدير فريقنا المسرحى ــ الدكتور زهران :
ــ ستجديهم فى الفنارات أحد رجلين .. متصوف عاشـــق
.. او هارب من محنة زواج وانتماء ..
**(ولكن لديهم حقا فضيلة عسيرة .. شجاعة الاعتزال)
الجديد الذى اضفناه الى مهمة السفينة النبيلة .. انها تحمل**
مسرحا الى عمال الموانىء والمناجم ..

ذلك باكورة عمل الدكتور زهران ــ **بعد توليه مسئولية**
المسرح :

ـــ نرد بعض الدين لعمالنا .. ومحاولة لاعادة اكتشاف أرضــنا الصعبـــــة ..

وهى ارض مباركة ـــ سمعت صوت الله ـــ ونحن فى حاجة لمعرفة النفس والأرض ـــ والبحث عن الكنوز المخبأة فى جوف الانسان .

(وكلما تناثرت من حــولى المدن ــ أجــد برهان ربى حاضرا ــ أخيرا اجد مسرحى بين عيون حقيقية وجباه عرفت العكوف والصبر .. واقامة عمل ينفع الناس) .

احب البحر والمسرح ..

حياة يتمتع فيها الانسان بحرية التصور والاختيـــار .. تكشف الانواء عن معدنه .. يعلن فوق الموج وخشبة المسرح عن حقيقته ..

عيشة طيبة .. ومهمة نبيلة ـــ وان حضره الموت يموت بلا هوان .. أو تحيط به سيئاته قيد لهم به الزمان والمكان .. والانسان من قبل ومن بعد ــ اختيار ــ

نشطت الريح .. اخذت تربت على وجهى .. استسلمت للمداعبة تغزونى رغبة فى الضحك .. انتعشت خلايا بشرتى .. تفتحت عيون المرح .. تدافعت الامواج .. صارت قمما بيضاء .. انتشرت بسرعة على سطح الماء .. خلتنى اطفو هناك وسط الزبد المخملى .. احب « لعبة الماء » اســتلقى ابتغى وجه السماء .. ورؤى احلامى بين سحب محملــــة بالوهج والضياء احلام ممتدة الى « الغيب الرحيم » واجسام نورانية وجيوش متراصة للخلاص **(اعتقد أن من برزوا فى فن التصوير كانوا فى طفولتهم مثلى ــ عيونهم معلقة هكــذا بالسماء) .**

لكن أهب فجأة من الرقاد فوق الماء .. حتى لا يجرفني التيار – وافقد الارض تحت قدمي – مناورة بحرية ابتدعتها لنفسي .. لعبة استعين بها – احسبني ماهرة اتدرب على الوقوف على حافة الخطر – وحتى اشحذ كل خلاياي للتيقظ والدفاع ..

(« مناورة غرق » واسميها « لعبة الماء » .. مادمنا جئنا من فئة تقدمها مرهون بجهد السباحة ضد التيار) .

فجأة لاح امامي كالشراع ..

احسست به قبل أن يغادرني شرودي .. جاء كتداعي المعاني .. خرج من تتابع الصور والذكريات .. ترجل عن فرسان السماء .. تجسد أمامي بشرا سويا – زاده الله بسطة في الوجود والجسم – احسست به يتأملني .. يستبد بي شعور قديم أن كثيرين ممن نلتقي بهم في الطرقات والحجرات .. ويزحمون وجه الحياة – انصاف بشر .. وبقايا ناس .. يشع عليك وجودك انه انسان .. كيان متكامل .. يتأملك .. يسبر أغوارك .. بنظرة .. يطل على مياهك العميقة ..

مثل « نيوتن » وددت أصرخ « وجدت انسانا » ..

لابد هو .. من يكون غيره .. الربان .. ورغم اننا على ظهر سفينة منذ ثلاثة ايام فلم نره أو نلتقى به .. – الكل الكل يقول عنه ولا نراه –

(هو مادام وجوده مؤكدا بهذه الدرجة .. وصمته مدويا يخرجني من عالم الذكريات ..)

– يبدو أن الشمس تلائمك .

(لاحظت ما فعلته الشمس بي .. في المرآة هذا الصباح – أحالت سمرتي الى لون النحاس البراق) .

ظللت صامتة .. أرقب البحر .. واسمع تفكيره وصوته

ـ يعجبك المنظر .
ـ تغير البحر منذ لحظة .. وتناثرت على سطحه قطع المخمل البيضــاء ..
ـ نسميها فى البحر ـ الجياد البيض ـ اعطى للصورة بعدا جديدا ـ كأنما لمس قلبى والموج بنظرة سحرية فتحـول المنظر الى ساحة سباق .. « جياد بيض » تنطلق بسرعـة وتستبق . تعلو وتهبط تتدافع الى الفوز والانتصار .
(تذكرت سباق يجرى على البر اللعين منه اتيت .. هناك بين المبانى الشخمة وفوق الصفحات) ..
قال وكأنما يتبع ما يدور بنفسى وفكرى ..
ـ وهو بالطبع غير سباق الخيل ـ فى المدينة المترفة ـ ثم فجأة وبدون مقدمات :
ـ هل التقينا من قبل ؟
ـ لا اظن ..
ـ رايتك .. اعرفك هذا مؤكد .. فقط لا اذكر أين ؟
ـ وهل تعرف من انا ..
ـ قالوا لى ـ كابتن المسرحية .. نور علام .. بين الركاب
ـ كما عرفت انا الربان .
ـ كيف ؟
ـ انت هو .. والا كيف عرفتنى المؤلفة ؟
ـ لست الممثلة بالتأكيد .
ـ الممثلة صديقتى ..
ـ حتمـا ..
ـ لم ؟
ـ تجسد افكارك ..
ـ تهتم بالمسرح ..
ـ لا اعرف عنه شـيئا ..

اهتم الآن بتذكر اين رأيتك ..
(ربما التقينا فى بحور كونراد .. رقص ايزادورا .. او ازقة نجيب محفوظ العبقة .. فى ((قصر الشوق)) اليه ..
دروب قريتك وبين خلجان متناثرة «وأقاصير» الموانىء البعيدة
.. أما كبرياء ناظم .. وعمق عيونه الزرقاء ((عبثا تجدون فيها آثار خرف)) — التقينا حتما) ..
قلت : تقرأ كثيرا ..
— لا علاقة لى بالكتب ..
بهت .. أخذت ..

(لو أن احدا نطق امامى بهذه الكلمات لنفضت يدى من الحديث معه ما لم يكن حكيما بالفطرة) .

افضل من يتخذون من الكتاب صديقا .. واعجب بدون الفكر والقراءة ..ماذا يصنعون بحياتهم؟ .. كيف يحتملون؟..
ومع ذلك لست أدرى ماذا حدث لى الآن ؟.. لا ازهد .. لا أمل من الحديث .. اجد متعة فى الاستمرار معه ..

ربما لأنه هو نفسه كتاب حى وزاخر .. ينبىء عن خبرة وتجربة .. واعد بأجواء غريبة وجديدة .. مترع بالحب ونبض الحياة — احب صوته صريحا عميقا (احسبنى فى منطقة جذب شديدة) .

قلت : الغريب ان مسرحيتى بطلها ((بحار)) .
— لا يدهشنى ذلك .
— يقول النقاد مجال غريب لكاتبة .
— اكتشاف البحر ورجاله يحتاج الى قوة وجسارة ..

وهناك امراة دائما لها قوة وصمود عشرات الرجال ..
وبالمناسبة تعلمت الصلابة من أمى ..

(أخذني الى قلب عالمه .. الى جوف حياته .. تخيلت امه فلاحة ناحلة .. شاحبة الوجه .. قوية الارادة .. لها قدرة على مواجهة الشدائد وقوة احتمـــال ..)

قلت فجأة : أتعرف ما أفكر به الآن ؟

ابتسامة حلوة ساخرة انفرجت بها شفتاه .. مزيج مــن الغرور والثقة .. ظلت تصدح وتتعالى « بالطبــع أعــرف ما يخطر على بالك وما تفكرين فيه » ٠

(لو أن رسام الموناليزا موجود الآن .. لصور ابتسامته .. سجلها ليرحل هذه المرة .. وفزنا بلوحة أخرى خـــالدة)

ـــ يغزوني احســـاس غريب .. ومنـــذ بداية الوعى .. بانتمـــائي للبحر ..

ـــ شـــعور طبيعى ..

ـــ اني خلقت للبحر ..

ـــ لديك « ذلك الحس المتميز لبحـــار » .. يوســـعك استقبال اى اشارة .. وبث اشعاعات نافذة ..

وهكذا تجدينى اتحدث اليك ببساطة ـــ ودون أن يقدمنا أحد ـــ قال لى بحار عجوز يوما ، ابناء المهنة الواحـــدة يتعارفون منذ اللحظة الاولى ونقـــل طبـــق حســـائه الى مائدتى قبل ان أدعـــوه .. قـــدمه لى كـــان البـــرد شـــديدا فى الخارج ـ **عجبت لدفء رجـــل ابيض من الشـــمال** .. قال لى : انت بحار **وتفهم جيدا هذه الاشـــياء** .. تدرك بوضوح مشاعر بحار .. نحن نترك عيالنا واحبائنا عـــلى الشاطىء .. واكن عندما نلتقى فـــوق أية رقعة من الارض .. فنحن ابناء اسرة واحدة .. **« أبونا البحر »** .

(صلته أقوى من الدم .. وأنا ولدت ليلة شتاء بجانب البحر .. وامضيت طفولتى معه .. واحلامى لها نفس حركته .. ومنذ لحظـــات كنت اقول لنفسى المسرح والبحر همـــا كل حيـــاتى ..) .

استمر .. وكانه ينصت الى حوارى الداخلى ..

— عندما رأيتك ترقبين البحر بوله عظيم ..
وتترامى نظرتك الى عمق الماء .. احسست بك قريبة منى .
تنتمى الى « عالمى » بلا شك ..

(مرة اخرى يثير نذر التحدى داخلى !! تنتمى الى عالمى .. يقولها عن ثقة ويقين — كانه اتخذ قرارا — اصدر احد اوامره — وعلى اذا قام الآن ان اتبعه الى غرفة قيادته .. الغـــريب فى الامر اننى ابحث داخلى عن ذرة غضب .. بادرة تمـــرد .. ولا أجـــد ..) .

— تذكرى جيدا اننى قلت لك كل هذا فى لقائنـــا الأول بالبحـــر ..

— تقصد أن هنـــاك مرات قادمة ؟

— ســـيحدث ..

(غريب هذا الرجل .. ثقته تتسال الى نفسى .. تنساب قطرة قطرة .. تدرب فى مدرسة الصمود لـــدى امة .. فقط يثيرنى ترفعه .. كانه يشير الى ان القى بقلمى الآن وكـــل ما تعلمته من نظريات وفنون .. واتبعه الى الحياة الحقيقية .. حيث يأتحم بقاب الصراع — ويشق طريقه وينتصر .. يقام مسرحا ساطعا .. ويرفع صاريه عاليا — وهو أهم رجل على السفينة .. وان كانت البطولة جماعية مثل مسرحى .. لا بل هو الذى ينتمى الى عالمى ..)

تدافعت امامى « الخيول البيضاء » .. من قال ان البحر نسيان ؟ .. يوقظ المشاعر والهموم والذكريات .. يجعلها تركض امامك فى ومضات سريعة ومكثفة .. تعى كل الالوان وتتنفس حتى الرائحة · ·تدرك أين هو الجواد الذى كان مقدرا أن يفوز .. ومن هو الجواد المتعب الذى يتبعك .. ترى سبق حياتك ..

صفحة البحر تبدو زئبقية داهية .. مياهه العميقة صافية بلون الخطر · واشعاع الغدر ·· وكل الاشياء عارية جارحة حتى الوحوش البحرية تستطيع أحيانا رؤيتها فى مكامنها تستطيع رؤيتها وهى تحاول الانقضاض .. وقد تشهد عملية الافتراس ذاتها ..

هناك فى المدينة تغطى فخاخ الغدر بألوان زاهية ·· تسعى اليك بين الابتسام والانحناء ..

تحية تلقى عليك فى الصباح لا تعنى ما تقوله من النور أو الخير ·· وعندما تستدير ترشق فى ظهرك السهام ··

هكذا نتصل بالحضارة .. يفرض علينا الاشتراك فى سباق وحشى لخيول مجنونة .. جامحة .. حتى لو لم تكن تملك مثلهم « جوادا » .

سبحان من علمنا صنع الفلك بوحيه وعلى عينه حتى نعود الى حضن الطبيعة الأم ·· ونركن للتأمل ·· حتى لو قست علينا ·· واقتلعتنا الريح ·· وجرين بنا بريح عاصفة ·· فهو مجرد درس وابتلاء ·· تدريب على مواجهة الصعاب·· نقترب من الله أكثر .. ندعوه أن يكشف عنا الضر ..

قالت زميلتى ونحن نغادر البناية الضخمة التى نعمل بها :
— ما الذى خرجت به من الاجتماع ..
— لا شىء .. لسنا اكثر من ديكور — وكان الامر شورى بيننا — فى حين أن كل شىء معد ·· ومقرر قبل اجتماعنا ··

حتى المتحدثين ·· والمتشنجين ·· والغائبين ·· مسرح للدمى كأننا فى سباق وهمى .. فوق رقعة الشطرنج .. لايرجى فيه سبق ولا فوز — ولا اى تقدم حقيقى ..
جئت لأنسى ··

فسحة نلتقط فيها النفس .. اعيد هدوء نفسى .. أستعيد مع البحر سكينتها لكن عبارة « خيول البحر » أعادت لى كل ما اهرب منه ·· كل الألم ·· والشجن ··

(اهفو لحديث انسان — كما حدث لى معه فى لقائنا **الاول ..**

اكتشفت شيئا مثيرا .. فى اية جولة له على المركب .. يسبقه « رادار » عينيه ·· فى البحث عنى ·· وتحديد مكانى ابتسمت لنفسى .. احساس جميل .. يحملنا الى عنان السماء ، يجعلنى مثل ((نجمة)) ..) .
سمعت صوته نجأة :
— اتعامل معك مثل « نجمة الميناء » فى اتجاهك دائما ..

(جعلنى مثل ((نجمة)) .. جعل الله له نورا يمشى بـه فى البحر ·· تواصل مع خواطرى ·· وصل الى مرحلة الجلاء البصرى والسمعى ..) .
عدت الى الانتباه اليه .. يكمل حديثه :
— أعرف شعاب هذا البحر .. قطعة قطعة .. موجودة على الخريطة لكنى أدركها « بحسى » ·· اتعامل معها ··

اقترب وابتعد بقدر .. طلبت منى « القيادة » الا أمون الفنارات ليـــلا ..

ــ وهل تفعل ؟ .

سأله الدكتور زهران .. جاء مبكرا لنبدأ سهرتنا المعتادة

ــ دربت بحارتى على هذا .. ويجدون فى عملهم متعـــة كبيرة ..

ماتظنون « البحر يبنى الرجال » .

قال الدكتور ــ زهــران : **ما رأيــك يانــور .. تنضــم** للأسطول ..

(ماذا يصنع هذا الربان بالبحر وبنا ..) .

حول نظرته الى اتجاهى مباشرة .. قال :

ــ ارجو ألا يفوتكم « المشهد » **هذه السفرة .**

(بالليل والبحارة العظام يهبطون الى الزوارق .. والسفينة تبتعد عن قاعدة الفنار المرجانية .. يجدفون فى قلب اليم . منظر اسطورى يخلب اللب .. **ولابد أن ينتصر هؤلاء الرجال يوما فى عبور المستحيل) .**

سمعت الدكتور زهران :

ــ ولكن هذا خطير ياكابتن .

ــ وما قول سيادتك فى ان البحارة يتنافســون **على القيام** بهذه المهمة .. واصبح الانضمام الى طاقم « **الزورق الليلى** » نوعا من الجائزة .

رد الدكتور زهران :

ــ انا مع القيادة فى التحذير ..

(قلت لنفسى .. مغامر هو .. لكنه يعرف مايعمل دائما ..)

ضحك ــ ضحكة انسان لم يعرف الأسى **طريقه الى قلبــه** ابدا ..

— قائدى مثلك تماما — وبالمناسبة له لدينا نفس المكانة التى تتمتع بها فى قلب مجموعتك ..

(عرف اذن مكانة الاستاذ منا .. والصلة الكبيرة التى تربطنا به وكانه يختصنى بجملته الاعتراضية هذه ..) .

— قال لى القائد .. يا ربان زياد قد نحييك ونعجب بك وانت تأتى فى البحر بأعمال خارقة .. ولكن عند اى خطأ نقسو عليك .. ونحاكمك .

تجلى صوت الاستاذ : حكمة فائقة

— الخدمة فى البحر تجعلنا حكماء ..

لدينا قانون بحرى يرشدنا الى بعض حلول أمام خطر التصادم .. غير أن أروع ما فيه نهايته اذ يقول : المهم أن تفعل أى شىء لانقاذ سفينتك ، أى استلهم حسك أو حكمتك ..

قلت — ما رايك يا أستاذ ان نلتحق بفرقة تدريب على فنون البحر

(قلت منذ البداية البحر حرية واختيار .. وكيان متيقظ دائمـــا)

تنهد الاستاذ : قانون هام ..

يصلح للبحر .. للسياسة .. فى الحياة ..

قال الربان : وهو قانونى الخاص

بقيت مع الدكتور زهران فى صمت بعد أن غادرنا .. قال وصوته يحوى دفئا وحنانا ..

— عندما رأيتك تتحدثين امس مع الربان .. قلت لنفسى لابد أن نور قد عثرت فيه على رجل يغريها بالحديث معه — ولم أكن ادرى انه ساطع بهذا الشكل .

ضحكت — لم اســمع صـــوت نفسى هكذا من قبل (مثل ضحكته كان الأسى لم يعرف طريقه الى قلبى ابدا) .

ـــ كنت سادلى اليك باعتراف ..

استمر الاستاذ فى حديثـــــه .. « انه من نوع الرجال الصامتين ·· لكن ما ان يبدأ حديثا حتى تصبح الحياة أكثر نضرة واشراقا .. » .

تذكرت سدود الصمت التى تقام بيننا فى المدينة .. كل منا جزيرة موحشة ·· مهجورة ··

تذكرت يوما حاجتى للحديث مع « انسان » أسمع صوت نفسى ··

مزقنى « المنلوج الداخلى » .. استبدت بى الرغبـــــة المجنونة ذات ليلة ·· كنت قد ابتكرت عبارة جديدة ·· أعد نفسى مكتشفة ·· جزء من عملى فى الحقيقة اقامة الكلمات ·· اعادة اكتشافها ·· تصعيدها على السلم الموسيقى ·· تجربة عزفها على أوتار القلب ·· خرجت الى الشرفة ثملة ·· الى من أزف نبأ كشفى المثير ·· لم أتوجه « بخلقى » ·· وليدتى ··

وددت لأقف أعلى الشرفة .. أصرخ ليصحوا كل النائمين ·· الغافلين والسادرين فى غيهم ·· من اتخذوا « الكتاب » مهجورا ·· والسمع معزولا ·

أوقظ مدينتى ·· أدفع مسلوبى الارادة والتعبير ·· كيف ألتقى بالمعذبين مثلى ·· خلف نوافذهم البعيدة « المضيئة » ·· من يعكفون على الصلاة ·· وقيام الليل ·· والترتيل ·· يقومون الليل ·· يجاهدون لبعث الكلمات ··واحياء الأسماء ويتأملون عند الأســـــحار ··

ربت الاستاذ على كتفى : ما بالك يانور ..

ـــ كنت اقول .. أريد لأدلى اليك باعتراف ..

ضحك وقال : بلغنى ··
وتدفقت الى وجنتى دماء ساخنة ·

(للبحر فعل السحر ·· كأنى عدت فى العشرين ·· كنت اريد لأحكى للدكتور زهران ·· لكنى قلت « اعتراف »

رنت الكلمة غريبة فى صدرى ·· لم نصل يوما الى راحة الاعتراف ·· همنا نحمله الى الابد ·· يتبعنا الى اى مكان ·· ويحيط بدائرة الزمان ·· كيونس النبى ·· حتى فى جوف الحوت لم يحصل على راحة الغياب ··

– ورغم أن فوقه ظلمات ثلاث ·· ظلمة الليل والبحر وقلب الحوت – لولا أنه كان من المسبحين ··)

دعوت « سبحانك » ·· أستعين بالصبر والصـــلاة ·· وتثبيتا من انفسنا ..

مد الله لى يده ·· من خلال ذلك الاب المقدس ·· بعـد سنوات من الصمت عدت لأكتب .. مقالى كان عن صـــبغة **المستقبل فى كلمات الله ·· وفيها أتحدث عن الأمل الممتد ·· والوعد القائم لطريق الحق والعدل ··**

وجاءتنى الرسالة المباركة ··

كلمات شفافة ·· « الله محبة والدين لله ·· وليبارك الرب عملك يا ابنتى »

كنت فى حاجة لمن يدعوننى ابنته **(قطعوا ما امر الله به أن يوصل ·· ضربوا جذورى الممتدة الى أبى ·· ذهب معهم يحتمى بمعاقلهم من الطوفان ·· ضـــاع ندائى ·· وولى عنى ··)**

وهرعت الى هناك – مدينة الصلاة – ألقاه ·· أحدثه عن رسالته ·· عما صنعته بى الكلمات ·· ومن يدرى فقد نحظى أمامه باعتراف ·· انفض عن نفسى عنـــاء أعوام ثقال ··

وصمت سنوات وصفحات ·· رجوت لاعترافى أن ينزل الى البئر العميقة · ·وتعود محملة بالأمل والمخرج والنور ··

هناك مكان على الاقل نضمن فيه سرية وقدسية الاعتراف ·· صدمنى جمود « الخادم » يحول بينى والمثول امام المذبح ·· فم الحوت المفتوح نقول داخـله (**لا اله الا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين**) ·

ــ ليس موجودا « ابونا » الآن

ــ متى يحضر ؟

ــ اليوم موعده لكنه لم يجيء

ــ ربما فى الاسبوع المقبل ؟

ــ من يدرى ؟

ــ الاسبوع الذى يليه

ــ احتمال ··

ــ هل يعتزل « مدينة الصلاة »

ــ تجملى بالصبر والانتظار

ــ أيطول أكثر الانتظار ؟

ــ ليس لى أن أعلن الا ما أخطر به

تنبهت من شرود الذكريات على وقع اقدام ·· ايقاع خطو عسكرى يلهب الحماس والانتباه (**انشرح صدرى**)

تقدم ومعه الدكتور زهران وحديث بينه و « بلال »

ــ يا مساء الخيرات

داعبه الأستاذ ــ القبطان حتما من الريف

أجاب وكأنه يتيح لى فرصة التعرف به اكثر :

ــ من قلب القرى

قال بلال ــ حسبتك من صعيد مصر

رد الاستاذ ـــ مثل نهر النيل يمتد من عمـــــق الوادى
ـ وكما ترى حتى اعالى البحار ـ
حيانا مرة اخرى وانصرف الى عمله ..
تطلع اليه « بلال » حتى اختفى ـ
ـ لديه الكثير هذا الرجل .. حتى فى صمته يقول ..
احس به « منا »
ـ احس به « جمعا »

اضاف بلال ـ اشـــبه بخزينة مليئة بالاسرار والاحداث
وكأنه يعرف كل شيء .. وفى الوقت المناسب يدلى بدلوه ..
(تحس دوما أن لديه خطة .. يستدعيها لحظة المواجهة ..
ويستعد لها دائما ..)

تنهد بلال ـ افضل ما فيه .. انك معه تحس بالامان ..
أخبرتنى « أمل » انها تنام ملء عيونها ـــ كما لم تنم ابدا فى
عاصمتنا القاهرة ورغم خوفها العميق من الابحار ..
اعترفت لى انها اطمأنت عندما رأت الربان .
نظرة دافئة مداعبة .. وملامح سؤال انطلقت نحوى من
الأستاذ :

ـــ ما الحكاية يا نور .. مع صديقنا الربان .
صوتى جاء على استحياء .. كبداية عزف منفرد ..
ـــ دون أن يعدك .. تشعر بقدرته على حمايتك .
مرة أخرى يحرق بلال صدره بآهة مديدة ..
ـــ قدرة استمدها من منازلة الريح ومصارعة الأنواء ..

المشكلة أن قليلا فى العالم من تشعر معهم بأمان ..
ربما تقولونها أنتم ـــ هكذا ـــ كمعنى جميل ..
لكنها عند الفلسطينى ..

ومنذ ان كان صغيرا على صدر امه .. لم يشعر بأمان ..
بين ذراعى ابيه .. واقرانه فى المخيم ..
وعندما يشب .. يذهب الى الجامعات .. ويمشى فى الأسواق ..

وقد يلقى امراة تحبه .. يحبها ويتزوج بها .. يعيش معها بمسكن يرضاه .. يمتزج دمه بدمائها .. وينجب طفلا لكن يظل الوضع « معلقا » .. لا ارض .. لا امان .. كأنه « معنى مجازى » .. رسم معلق على جدار .. أتدرون لماذا يحب الفلسطينى ارضه اكثر من نفسه .. ويموت وهو فى قمة العمر من اجلها .. لأنها حلمه .. امنه وجوده ومعناه ..
يقطر مضمونه بكاء : بدونها غريب .. ناقص المعنى .. ساقط القيد .. بلا هوية ..

مغترب فى عيون الناس .. يحلم تحت سماء أجنبية ..
وشمس غريبة ليست مثل تلك التى تشرق على القدس ..
— فى نيسان — مثل هذه الأيام ..
ولا تمر الجليل الاعلى .. واشجار الزيتون وبيارات البرتقال :*:

قام الدكتور زهران .. احتضن بلال :
— أهدا بلال .. نجواك تجعلنا ننزف « دما » ..
— صدقونى اتعرفون لماذا اخترت مهنة الاخراج المسرحى .. لأجد ارضا عربية اخاطب من فوقها اهلى .. قومى .. قاعدة ينطلق منها النضال .
المسرح عندى هو الوطن .. الارض .
وكان سحابة ذرية قد مرت بنا .. وتوقفت فوق رءوسنا ..
(اقبل ياهمنا الثقيل .. تعال الينا ياحزن .. ويانــدم ..
اجثم علينا بصدرك الثقيل .. افترسنا .. مزق احشاءنا ..

ربما خيل اليك اننا نسينا لحظة .. غفونا .. شردنا .. غبنا فى لحظة مرح تعال الينا يأكل شحنة الغضب) ..

احتقن وجه بلال واحمرت عيناه .. ظلت دموعه معلقة .. لا يترك لها العنان .. تقوس ظهر الأستاذ وشحب لونه ..

حاول أن يخرج بنا عن دائرة الحزن .. خصوصا وقد بدأ بعض طلبة المعهد .. — المشتركين فى المسرحية — يلتفون حــــولنا ..

جاءت « منى » اصغر نجمة فى مسرحنا العتيد .. نجـــدها دائما وسط مجموعة من الطلبة والخريجين والمتفرجين .. ذات دلال وذكاء .. هى الملكة بين رعاياها دائما .. بدت وكأنها واحدة من أسماك الزينة النادرة تقتحم عرين الوحوش البحرية .. لذا تحصنت بالحراس والاتباع ..

قال الأستاذ : ها قد كشفت يا بــــلال عن ضرورة جــــديدة للمسرح ..

نجاحه يعنى أرضا جديدة يستردها العرب ..

قالت منى : أفكر يا دكتور بتقـــديم رسالتى عن « المسرح والأرض » .

هز الأستاذ رأسه : يا له من موضوع ..

(صهرنا الفن .. وحد بيننا — مأساة واحدة .. ومصير كذلك نحن قلب أمة العرب ..)

رفع عماد صوته وهو يردد الجمـــل التى ســـيقولها على المسرح :

— وقعوا الالتماس من فضلكم — فهذا أمر يهم القرية كلها ..

بدت « أمل » فى ثوب أبيض جميل .. رفعت شعرها باهمال فزادها حسنا وبهاء ..

(فى زمن يخونك فيه الأصدقاء ويتولى عنك الأشـــقاء ..
تبدو أمل جوهرة ثمينة .. لؤلؤة نادرة .. معك أمل يشـــعر
بلال بالأمان ومسرحيتى بين يديك .. مسئولية ضخمة نلزمك
بها .. وأنت أحق بها ..)

ـــ مساء الخير ..

أين أنت يا نور .. هل هجرت من أجلى قمرتك ؟

(عليك أمل أن تجسدى ذاك القلق المضنى .. تجعليه نبيلا
وخصبا .. قوة دافعة ..

تدافعين أيضا عن قضية بلال .. **قضيتنا جميعا ..**

وكلناك عنا .. لم يعد كافيا أن يكون الحق جليا واضحا ،
العدل مرهون بالقدرة على الدفاع عنه .. وعلى حد قول
أستاذنا ((وبالطريقة التى نحسم بها القضية .. تتوقف عليها
مقومات حياتنا))) ..

مرة أخرى تعاتبنا أمل :

ـــ لا أحد يرد على ..

طبعا تمرحون وتسمرون .. وأنا مثل البحارة فى رحلة عمل .
أحبس نفسى لأحفظ دورى .. حتى « بلهجـــة مسرحيـــة » :
أنت يا بلال ..

يقبل بلال يدها .. هى حبه ومستقبله ـــ **تغار منها الصغيرة**
منى :

منى ـــ بلال يهتم بالشباب .. يحاول تدريبنا جيدا ..
أما أنت فسيدة الموقف ..

يتدخل الأستاذ : أمل .. أنت أملنا ..
« كونى دفاعا مجيدا » لنا ..

تقول أمل بدلال وجدية : تعرفين نور ..

اولا الفن لعملت محامية بالفعل ..
ــ كأن الدور مكتوب من اجلك ..
وهذا هو الرعب ..
صاحت منى ــ « الرعب فى الماء » ..
عنوان يصلح لمسرحية جديدة ..
يسترضيها عماد ــ لن تمثل السيدة أمل دور البطولة فيها .
منى : لأنها تخشى الماء ..
فريق الطلبة : « الرعب فى الماء » .
بطولة منى ..
يتدخل الأستاذ : هذا اسم التمساح عند قدماء المصريين .
وجدتنى اقول : هم اصل الحكمة فينا ..
ــ اسمعت يا بلال صديقنا الربان يقول ..
البحر معلم الحكمة ..
ــ كذلك النهر والجبل ..
يتنهد الأستاذ ــ الحكمة موجودة .. من يرغب فى تعلمها.
تنهض منى فى محاولة لاسترداد عرش الاعجاب بها ..
ــ وطبقا لنظرية أستاذنا .. والملقنة .
لنا منذ الدراسة .. واصول الدراما :
يجب ان نجبرهم ان يتعلموا ..
والا فليرحلوا ..
يصفق عماد .. ويتخذ محمود وضــــع الخطيب .. أو
الكورس ..
المعلق على الأحداث :
ــ وهكذا يضيع صغارنا اساتذة لنا ..
ويشوا بما علمونا ..
عماد : نحن فى عرض البحر ..

تضحك منى : ربما سفينة تلتقط اشارة لنا ..
الأستاذ : التزموا « النص » .. واجتهدوا فى الأداء فقط .
هل تنبهت يا أمل .. الى أن دورك فى المسرحية ..
هو نفس موقفك ؟
— وياله من موقف ..
منى — يمثل اشكالا قانونيا ..
عماد — يوقع ابرع المحامين فى مأزق ..
بلال يحسم المناقشة بلهجة المخرج أو القاضى ..
— ايش بتحكوا .. نحن امام قضية حياة ..

ما تعبت الأخت نور نفسها من أجل أن
تضمن روايتها مشكلة قانونية عويصة ..
وتريد فيها الحل .. أو الحكم ..
....
....
....
المهم .. هو عرض الأمر على « الرأى العام » ..
أمل تترافع عن « الشعب » ..
وهناك « محامى الخصم » ..
وبالمناسبة هل رأى أحد منكم المحامى « المتهم » ؟
يصحح له الأستاذ الاسم : تقصـــد محـــامى « اللص »
هو هنا من فترة ، ثائر بموكله .. لدرجة جاء يسمع وجهـــة
نظر الدفاع متلصصا .

اعترض « عادل عبد الوهاب » نجم الفرقة :
— تظلموننى والله .. بهذا الدور ..

لكنى أشحن قواى لأضمن لى اغلبية أيضا بين الجماهير ..
قالت أمل : بلال هل تصدق أنه يقاطعنى منذ صـــــعودنا

على المركب . ولم يحدثنى ابدا واكتشفت السر الان .. يشحن نفسه بالعداء لى ..

عادل عبد الوهاب : المهم ان كلا من وجهتى النظر محقق لهـا قـدر من المنطق والحق **(انت ثملة يانور بالحديث عن مسرحيتك .. تعلمين تماما انها سوف تفجر نقاشا لن ينتهى .. بناء من النوع الدائرى .. يعود بك من حيث بدات ولابد ان تتعمق فى فهم المشكلة جيدا وتنظر اى موقف تتخذ ـ وهو هدف متعمد فى حد ذاته) .**

قلت : انا ـ مثل استاذى ـ لا احب الناس يأتون الـى المسرح متخمة بطونهم يبحثون عن وسيلة للهضم او قتـال الوقت ..

قاتلهم الله .. لو كانوا من هذا الصنف اريدهم يفكرون .. ويحتارون .. ويكتشفون حكما لانفسهم .. حلا .. يجمعون انه اكثر عدلا ..

قال الأستاذ : هل أذيع لكم سرا ؟
الفكرة الاساسية للمسرحية .. خبر اذاعته ..
وكالات الأنباء .. وتحدثت عنه الصحف الفرنسية ..
يعنى : حادثة حقيقية ..

سمعت صوتا يعبر المجموعة ويبث موجة ارساله نحوى :

ـ ولكنك قلت سيدتى ان المسرحية عن ..
« بحار قـديم » ..

(كنت مشغولة داخل عملى .. ولم انتبه لوجوده بيننا واصغائه للحديث .. عنفت نفسى بشدة .. نفذ الى حتى ينازعنى وعملى) ..

تبسم الدكتور زهران وقام يرحب بالربان والاستاذ الابراهيمى مسئول المسرح الجزائرى الذى دعاه لمشاركتهم الرحلة الفنية ..

اجلس الربان ضيوفه واعتذر عن البقاء ..
(ترك سؤاله لدى معلقا .. دون انتظار اجابة له) ..

— ٣ —

قال السيد الابراهيمى : الشوق يثيرنى استاذ بشأن الرواية ..
هل لى ان اسأل عن حقيقة هذا ..
الخبر .. او الحادثة الحقيقية ؟
وتولى الدكتور الاجابة عنى :
— « هاجم اللصوص بيتا ريفيا اثنتى عشرة مرة .. لجأ صاحب البيت الى كتابة لافتة يوجه فيها انذارا أخيرا الى اللصوص ..
« توجد قنبلة .. كل من يقترب من البيت يلقى الموت » ..
وجاء اللصوص للمرة الثالثة عشرة ..
تطع بلال سير الخبر .. مازالت المرارة عالقة به ..
— لصوص شؤم ..
يستطرد الأستاذ : انفجرت القنبلة ..
قتلت واحدا منهم .. وفقأت عينى الآخر ..
يطرق السيد الابراهيمى فى تفكير عميق .. يصمت الجميع .. يصيح بلال :
— مالكم واجمون .. انتهى الخبر ..
تقول أمل : وجاء دورى ..

يعتذر الابراهيمى : معذرة كنت افكر فيما يمكن ان تفعله..
الكاتبة بهذا الخبر ..

(شدتنى جدية المناقشة .. احسست براحة .. لحظـة محلقـة باهرة ومن نكتب لهم يريدون سـبر اغـوارك .. اكتشاف ماتعنى .. اى مضمون تضعه لهم .. بين ايديهم .. هم من عملت من أجلهم .. من أجل أن تؤرقهم وتمتعهم وتدفعهم الى دنيا بهيجة عادلة) ..

عاد صوت الأستاذ مليئا .. مهيبا :
— المهم فى الامر ان محامى اللص « فاقد البصر » رفـع الأمر الى القضاء يطالب بتعويض ..
وتفجر النقاش فى القرية .. والمسرحية وتعمق « نور » الخلاف القانونى وتصل به ابعاد جذوره الاجتمـاعية .. وتدعو للتفكير واصدار « حكم » ..

يقرر الابراهيمى : عمل جيد .. وجهد يستحق التقدير ..
وتقول أمل : اختارتنى نور لأكون محامية صاحب البيت ..
يصيح بلال : وكان اختيارى منذ البداية ..
يؤكد الابراهيمى : الآن وضحت لى الصورة .. ولمحت الغـاية ..
الدكتور زهران : اخترنا اجمل محامية ..
جمال القول والمضمون ..

يهدد بلال : أمل تتصدى للمهمة .. وهى لها ..
المراة العربية الخالدة .. تدافع عن بيتها .. ارضها ..
ضد اللصوص .. سارقى الديار والأوطان ..
ويطالبون « بالتعويض » ..
تداعب منى بطل الفرقة .. وتشير حمية الفتيـان — ويجدون من يدافع عنهم ..

بلال : مثل بطل شكسبير القاسي ..
« يريد تعويضا يقتطعه من اللحم الحى » ..
يعترض عادل : صرت ضحية أنا الآخر ..
أعترض .. المخرج متحيز من البداية ..

يضحك الجميع .. يعلن مكبر الصوت فى السفينة عن اقترابهم من « فنار الأخوين » .. ويمكن للركاب النزول الى الفنـــار ..

(وهكذا تجيئنى دعوته عبر الأثير .. نزور الفنار .. وهو معنا .. هناك مسرحية أخرى ينسجها القدر .. وأبطال العرض هم الحكم والشهود) ..
تخيلت ماذا يكون حالى لو قررت الاعتزال .. عملت فى فنار بعيد ..
لن يتوقف « بؤبؤ العينين لدى .. لن تظل عيناى معلقتين هكذا بلا معنى .. الى الأفق » لدى نعمة الكتابة فى وحدتى ..
ولكن ماذا أكتب من والى وحدتى ..؟

سأكون مثل « يونس الرسول » .. سيتبعنى عذابى وفرارى وندمى .. سأقبع داخل ظلمات ثلاث .. ظلمة الليل والبحر والقهر ..

لن أصمد طويلا .. لن أحتمل .. صحبة ذنبى وهروبى المخزى من أداء رسالتى — حتى لو كنت فى انتظـــار ذات السفينة « الحانية » وربانها الساطع .. المتوهج بالأمل ..

سأكون من المسبحين .. ربى ظلمت نفسى .. فاغفر لى كبوتى .. ونجنى من بئر القلق .. واقذف بى يارب مـرة أخرى تحت شجرة اليقطين .. على شــــاطىء مدينتى

المتوحشة .. مدينتى وقاهـــــرتى وعنائى العذب المرير المتصل ..
أعطى أوامره بالتحرك بمجرد أن مست أقدامنا الزورق .. أخرتنا « أمل » الجميلة والانتهاء من زينتها .
أسميها « الأنثى الخالدة » .. مثقفة وعنيدة .. عاملـــة ومناضلة .. ثورية وعاشقة تتعثر من فرط حيائها .
هى وبلال .. معادلة تطابق مبهرة .. وحدتهما فى صف قضية العرب ..

وجدنا أنفسنا مع سلال الخضروات والخبز والفاكهـــة .. نحمل المؤن والزاد الى الفنار نبتعد .. عن سفينتنا « الأم » أخذنا نبتعد .. اللنش يبدو ضئيلا وصغيرا لدرجة تثـــير الفزع ..
(تملكنى شعور طفلة تاهت عن أمها وسط زحام السوق. تائهة فى مدينة غريبة ..
ليس الخوف تماما ما يستبد بنا ..
لكنه القلق الممض .. المحمل بالأمل فى اكتشاف أشياء جديدة وخوض التجربة) ..
ألقيت نظرة على سفينتى .. تقف بيضاء شــــامخة .. مشرعة وجهها الى السماء .. مرتفعة الى درجة تثـــير العجب ..
قال لى « شوشه البحار » : هى فى الاصل مركب تموين .. تصميمها مرتفـــع هكذا .. والغاطس بســـيط بالنسبة لارتفاعها ..
(تحمل احتياجات الانسان .. ماء وطعام وأسلحة .. الى الرابضين فى مكامن الخطر) عـــــدت انظر اليها — سفينتى — استرددت نظراتى **(كنت كمن ألقى به فى الحــلم**

من شاهق مرتفع .. هبط قلبي الى القاع وظــل يخفق بعنف وينتفض .. » أرجوحة صغيرة .. تهتز بعنف .
وتئز في قلب العملاق الصـــاخب بالخطر ..
درت بنظراتي أبحث عنه .. موجود عند (المؤخـــــرة) بجانب (طارق) البحار الشاب يمسك بالدفة ..
من موقعه كان يرانا جميعا .. وكأنما يحافظ عــلى توازن القارب وسط فوضى وقوفنا وبعثرتنا وسط سلال الطعام ..

طارق بحار واعد .. رأيته كثيرا يحوم حول مائدتنـــــا .. يريد لينضم الينا ويشارك أو يسمع احاديثنـــا .. فكــرت أن أدعوه .. عيونه تطل منها نظرة حالمة .. تحلم بموان بعيوة .. ونوافذ مضيئة .. وحصان تنتظر عودة البحار المتـــــرع بالمرح ولون النحاس المشبع بالذهب .
قالت « منى » وهي تشير اليه ..
— أين هم مخرجو السينما .. ليكتشـــفوا وجهـــا مصريا جديدا حقا .
رد عادل « بسخرية » : يتجلى في أبهى صورة له هنا ..
قالت أمل : بحار منتظر
اســـتمر عادل في تهكمـــــه : تريده ليلعب دور البطـــولة « أمامها » ..

عاودت « منى » الرغبة في اثارته : فيما من تأليف نـــور علام ونسطع في دور البطولة معا ..
قال محمود : يلقبونه « بطارق بن زياد » لشــــــدة تعلقـــه بالربان .. والتقاطه اى اشارة أو كلمة له ..

عدت أنظر اليهما .. كان منظرهما أسطوريا متفوقا ..
قامتهما مرتفعة .. عيونهما على البحر معا .. بينهما

تيار من الوعى والفهم المشترك ·· الملاح المصرى العريق ·· يعود لمجـــده القديم فى الفلك وعلوم البحار (والبحر يبنى الرجال) تمنيت أن يكون معنا الدكتور زهران ·· يرى على الطبيعة تلك اللوحة الخالدة ·· تجسيد حى للصلة بين انسان ومعلمه ·· جندى وقائده ·· شباب وقدوته ·· كل لمسة ·· لفتة ·· تدل على أن الاثنين داخل لحظة خلق فنية واحدة ··

لحظة تســاوى عمرا بأكمله ·· عندما تتســـق الحركة الداخلية المبدعة مع ايقاعها الخارجى بين اثنين من البشر ·· كرقص ايزادورا يتمايل فيه الجسد تبعا لتلك الموسيقى العذبة التى تنبعث من الداخل ··

(تشعر أحيانا فى ظلمة غرفتك أنك لم تكتشف بعـــد .. لم يجدف انسان الى مياهك الداخلية العميقة ·· ويصل الى تلك المنـــاطق الوعرة ·· ويعرف مخبأ اللؤلؤ والمرجان ·· يغمره النور الكامن وينطلق للعزف معك)

هبت رياح الشمال وبدأت الامواج تمارس لعبتها معنا ·· تذكرت قول بلال « معه تشعر بالامان » ··

تلفت أبحث عن أمل ·· وجدتهـــا فى جانب القـــارب تكاد ترتعـــد .. تفتحت لـــدى شـــهية المرح .. احسست بحرية غامرة ·· حرية فسيحة ممتدة برحابة الافق أخـــذت أضحك بشدة والامواج ترتفع لتصفع وجهنا .. مداعبة شرسة لكنها تغرى بالمرح ··

« عادل » يلف فى الوسط وقد استعد لرحلة الفنار هذه وارتدى جاكيت واسعة من الجلد ·· انتهزت الامـــواج فرصتها ·· وظلت تنفذ داخل السترة حتى انتفضت وصار منها الماء ينهمر ·

ارتفع نشيج الضحك - يبدو كالسقا القديم - يبيع الماء وسط البحر ·· فى عز المطر ·· اخذت منى تنشط والكورس المصاحب لها ·· حاولت ايقافهم ·· ضاعت محاولتى هباء وسط تفاقم الضحك ··

بدت الخيبة واضحة فوق كتفى عادل ·· ومال الى أمام كمن دتقل « قربة الماء » كاهله ·· اقتربت أمل ثائرة : لم أرك مبتهجة من قبل - هكذا ··

لم تكمل عبارتها ·· شهقت كادت تصرخ : ما بال المركب يميل هكذا سنغرق والله ونكون وليمة للقرش ·

(أموت هنا راضيـــة ·· بين يدى الخالق الرحيم ·· يضمنى الموج الى صدره ووجهى الى السماء والله محيط بنا ·· ميتة جميلة ·· والقلب مفعم بالامل ··)

جفت شفتا أمل وشحب لونها ·· وبلال يحيطها بذراعيه واهتمامه ·

كان يرقبهم جميعا وهو يقترب ·· وما أن اعتدل القارب حتى عادوا يضحكون على عادل ·

يقول بلال : هو فى مأزق .. لا يدرى ماذا يصنع بنفســـه .

وتضحك منى : مرتبك

يشمت عماد : لا يأخذ الامور ببساطة ·

يوقفهم بلال يوجه كلماته الى منى : ربمــــا وجودك هو الســـبب ·

ترد بسرعة : وقبل أن التحق بالفرقة

تمسك أمل بذراعى ·· أشعر بحنان جارف نحوها وكأنها ابنتى - اداعبها - تخافين أمل ؟

الخوف ليس جديرا بفتاة ثائر مشتعل ..

يتضرج صوتها بالخجل : عموما أخاف الماء ..
لكن خوفى اكثر ـ من اجل بلال
لا احب له ان يفقد الارض مرتين .
جاءنى صوته هامسا : وقبل اشتغالك بالكتابة والمسرح
ماذا كنت تعملين ؟

(اكرر لنفسى بيتا من الشعر .. ربما بين بحوره التقينا يوما ـ كما يعتقد .. واذا قدر لبد غجرى همجى ان تحاول اقتلاع راسى .. عبثا يرون فى عينى اثار خوف ..)

اقتربت منى بضجتها المعهودة .. وحولها الكورس الصاخب ينشدون فقرة من هتاف أهل القرية فى المسرحية :
ـ طوبى للمشردين .. المنهوبة بيوتهم .. بلا سقف ولا مأوى

طوبى لمن يقيم حائطهم . أو يعلى جدارهم ..
تقترب أكثر من نور وأمل تقول بصوت متخافت :
ـ وأنا .. ألا أصبح وطنا لأحد ..
أرض أو سماء .. يظل حظى معلقا هكذا ..
تتمايل وتتحول بابجة بنت بلد جريئة وواضحة : يارب وحياة هذا البحر العظيم ـ والخطر الجسيم .. تفك عقدتى .. وتجعلنى أفرح بشبابى ويكون الرحلة دى .. سايقة عليك النبى .

ابتسم ولم يعلق .. اقترب منى اكثر : والآن قولى اين التقيت بك ؟
ـ فى البحر ..
انشغل عنها ببحارته واقترابه من جزيرة وفنار « الاخوين » ..

مال بزاوية جعلتنا نرى الجبلين على خط واحد ٠٠ حاد من الشعاب المرجانية
أخوان حقا ٠٠
فارســان انتفضـــا من أعماق الماء ٠٠ ويعملان معا ٠٠ يوليان وجهيهما الى السماء ٠٠
لمحنا ثلاثة أشـباح تقف على حافة الجزيرة تلـــوح فى الهـــواء ٠
صوره من الخيال .. تتبدى مغلفة بضباب الذاكــرة .. تتضح معالمها فجأة فى منطقة الوعى ٠٠

موظفو الفنار يهللون كالاطفال ٠٠ تستبد بهم الفرحة بعوده « أمهم » تعود بعد تركهم وحيدين مسافة طـويلة .. تجىء محملة بالحنان والطعام ٠
ان مجىء السفينة وعودتها تمثل الحركة الرئيســية فى نظم حياتهم ٠ واذ قال « اليوت » فى قصيدته « أقيس حياتى بعدد ملاعق القهوة »
فحياة أهل الفنار محورها دورة السفينة ٠٠ ودورة الزمن بهم ٠٠
هى تحمل الدفء والمشاعر والرسائل والطعام ٠
شريان الحياة الممتد الى قلب الوطن ٠٠ ورابطة الحب المتجددة بالارض والناس ٠
بدأت حركة الرجال الثلاثة تتضح ٠٠ كأنهم يؤدون رقصة مقدسة ٠٠ اقترب « شوشة » منا ٠٠ لابد أن لديه أخبارا مثيرة يريد قصها علينا ٠
ـ طلب من بلال أن يعطيه دورا فى المسرحية ٠٠ هو يقول عن نفسه انه مسرح شامل ٠٠ يغنى للبحارة ٠٠ ويحكى لهم يسليهم ويفرج همومهم ٠

مسرح عائم ٠٠ متنقل ٠٠ هو يقوم بكل الادوار فيه ٠٠
فما دمنا جئنا الى عرينه ونريد لننافسه فلا اقل من ان يعمل معنـــا ٠

جاءتنى الفكرة وامضة وبلال يحكى لنا ٠ لماذا لا نعرض المسرحية ٠٠ أو حتى بروفاتها للبحارة ٠٠
عندما نعود ســأحدث الدكتور زهران فى ذلك — وهى فرصـــة ثمينة تثرى تجربتنا المسرحية ٠٠ وفيها الجمهور منتقى ويموج بالحركة والفهم والعمل ٠

قال شوشه : سترون الان أشهر شخصية فى الفنارات كلها مأمور فنار الاخوين — ويعطل لنا المركب كل مرة ٠٠
يضحك ٠٠ ويأتى بحركات تعبر عن الدهشة والعجب — وكأنه يقنع بلال بمواهبه التمثيلية ٠

— لا تكفيه مدة الشهر للانتهاء من خطابه الى زوجته ٠٠
واذا اتواجدوا مع بعض تحصل معركة وخناق ٠٠ ويعرف الجيران واســكندرية كلها ٠٠ والمصــلحة ٠٠ وبحارة السفن ٠٠

آه ٠٠ اسكندرية دى بلد صغير ٠٠ اذا عزمت فيها على الزواج من فتاة ٠٠ يدور فى المدينة كلهــا سريعا الخبر ٠٠ ويناقش الناس فرص الاستمرار والفشل ٠
قالت أمل ٠٠ حقـــا لا تبيت عروس البحر الجميلة هذه ليلتها الا ومعروف لديها كل الانباء والخبايا والشـــائعات والتوقعات ٠

قال بلال : أول مدينة ايدت الثورة .. كأنها فى ليلتها ظلت تســتعد ٠٠
قلت : وأول جامعة فيها تعلن رايها وتتخذ موقفا ٠

ولكن تنبهوا لما يخبركم به « شوشه » يقول ان الحرب تشتعل عندما يلتقى مامور الفنار مع زوجته !

هتفت امل : انت محظوظة يا نور ..

رزقك من الحكايات يأتيك .. حتى من باطن البحر ..

رد شوشه بسرعة وعيونه يلمع فيها شعاع ذكاء فطرى :

— الست نور تحب الحكايات .. عندى ما يملأ برميـــلا ويفيض — اى وعهد الله —

مثلا .. قاعد فى — الهو ده — ومـــع ذلك مخاصم زملائه ولا ينطق احد بكلمة للآخر .

فاض بنا الحماس لنتعرف على المأمور ..

توقفت حركة الرجال فجأة عندما مس مقدم الزورق حافة « السقالة » اصبحوا كصورة من الافلام الصامتة القديمة .. جمدوا فى أماكنهم على حركتهم الأخيرة .. وكان احدهم قـــد استعد للقفز فى القارب .. والآخران يمـــدان يـــدا .. كان الموسيقى توقفت بهم فجأة أثناء رقصهم وتوقفت تبعا لها حركتهم التالية ..

قال طارق : فوجئوا بوجود السيدات ..

من النادر أن تهبط فنار امراة ..

قبل صعود « السقالة » هتفت مع امل : هو « المأمور » فى حوالى الخمسين من عمره .. بادى الذكاء والنشاط والتلق .. يرتدى بدلة رسمية وصفارة معلقة على صدره .. وكاب على رأسه ..

شد قامته فى وقفة عسكرية .. عندما راى القائد معنا ويؤدى له التحية دون النظر ناحيتنا ..

أحاطوا بالربان وقبلوه — كأنه كل من تبقى من اسرهم — وتقدموا بحذر الينا — والقائد يقدمنا لهم — مد المأمور يده

بطريقة غريبة .. يجعلها متشنجة .. مفرودة بحيث لا تكاد تلمس يدك ·· ولا تجد مناصا من أن تمسك بها أنت حتى تسلم عليه .

وحسبته فى البداية لا ينظر الينا تأدبا .. لكنى اكتشفت بعد ذلك ان عينيه تعبرانك محدقة فى الافق .. عيون مشدودة الى امام .. مفتوحة هكذا .. بلا غطاء .. معلقة بالانتظار ..

ترقب لمة صارى .. كل حين لسفينة عابرة .. ترمض لحظة ثم تختفى الى ان يتم الزمان دورته .. وتاتى اليهم « العائدة » تعود دوما وتستهدف الدنو منهم .. والاقتراب بجانبهم ..

قال كابتن زياد .. وهو يفتح ذراعيه كأنه يضـــــم الجزيرة ..

ـــ هنا يقدم افضل شاى فى العالم .

(« الشاى » أسميه مشروب الاصدقاء ·· واحـــزن عندما اضطر لتناوله بمفردى .. وهانـــذا اشربه فوق جزيرة مرجانية من بحر موسى ·· وفى ظل اخوين شامخين ·· ومع اصدقاء ـــ عز الزمان ان يوجد مثلهم ـــ وهو ايضا معى) .

ذهبوا جميعا الى داخل الفيلا لاصــلاح شــانهم ·· جذب الربان كرسيا وجلس بجانبى ··

ـــ مثلى تحبين الشاى .

(أشياء كثيرة متشابهة تجمع بيننا ·· اكاد اصــــدق انه رآنى من قبل وعرفنى) ··

ظهر « المأمور » على عتبة الفيلا وفى يده ابريق الشاى ·· كان بادى الســـعادة والنشاط ·· يشرب الشــــاى معنا باستمتاع عجيب ··

سأله الربان : يوجد خصام ؟

- تحدثنا بالأمس معا ·· ودون أن ندرى ·· ونحن بانتظار قدومك ··

(عجيب أمرهم يتخاصمون داخل المنفى ؟ يعزلون انفسهم والعزلة تحيط بهم) !!

قال الربان زياد - أكرمونا يا سيدتى وتحدثوا ··
فكو حصار الصمت ·· ؟
توقف ونظر الى نظرة ثاقبة غمرتنى بالأشعة النافذة ··
أكمل ··
- أحببت زيارتكم هذه المرة ··
خصوصا ومعى « أصدقاء » ·

نطق الكلمة بطريقة مميزة ·· بنغمة خاصة ·· توحى اليك انه استبدلها فى الثانية الأخيرة من النطق بها ·· لكنها توحى بالمعنى ·· يقولها « أحباء » ·
نهض المأمور ·· اختفى لعدة ثوان ·· عاد أكثر حماسـا ومرحا ·· سأله ··
- فرغت من الرســالة ·· ؟

أغفى الرجل حياء ·· وكأننا نقرأ رسالة حب له ونكشف ما بها ··

قال : أريد تكملتهـــا ·· ولكن فى نفس الوقت احب البقاء معكم ·· والتحدث اليكم ·· مضى وقت طويل لم أحادث فيه اناسا أحبهم ··
قال ربان زياد : ها انت تقول شعرا ··
اقوم أنا اذن ··

هتف الرجل : بل ابق معنا ··
- لا يا عزيزى ·· اريد ان الق نظرة على المكان واسمـــع

لشكوى موظفيك ·· كما أنى أشعر بك ترغب فى الحديث مع السيدة ·

أطرق الرجل حياء ·· قلت :

– هل أعطلك عن الرسالة ؟

قال : بل أريد التحـدث معك ·· ولكن الذى يحيرنى ·· كيف عرف الربان هذا ؟

. . . .

استمر : « دائما أنتظر كتابة الأشياء الهامة فى نهاية الخطاب ·· وعندما تأتى الباخرة ·· من الفرحة بعودتها أنسى دائما ما كنت أريد كتابته ·· ويظل دائما شيئا معلقا »·

– « سمعت أنك كاتبة تؤلفين الروايات والقصص .. كنت أحلم بلقاء « أحد » الذين يكتبون للناس .. وربما يغيرون حياتهم .. يجعلونها أجمل .. يسكبون حياتهم على الورق ويجد الناس مشاعرهم وداخلية أعماقهم » .

يشرد .. كأنما يتحدث الى نفسه .. أو هو يفصح عن منولوج داخلى حبيس .. ومؤجل منذ زمن طويل .. يريد أن يكتبه دائما .. أو يعبر عنه فى آخر رسالته .. ودائما ينساه .. أو يسقط منه فى البئر العميق وينتظر دورة أمل جديدة بعودة السفينة ..

يواصل المناجاة : « جربت الشعر .. حاولت الكتابة والتعبير .. لكنها شغلتنى .. سممت وجدانى بشجارها وصراخها والنحيب المتصاعد منها دائما ..

« أنت لا تصلح لشىء » .. هذه كانت كلماتها الأخيرة دائما.

فى البداية لم أكن لأهتم .. شاب ولدى أحلامى .. وأصلح لأشياء كثيرة ··

والحياة ممتدة امامى وواسعة .. لكنها ظلت كالاسطوانة المشروخة تردد على سمعى كلمتها المأثورة حتى تبددت ايامى .. عدت لا أصلح لشىء ..

هجرتنى الكتابة .. فر منى الشعر ..

كان بوسعى أن أوقفها .. أخرسها .. اتركها .. لكنى « صمت » .. عرفت بعد فوات الأوان « ذنبى هو صمتى » .. خطيئتى .. استبدت بى .. » .

كنت أريده الاسترسال فى قصته .. لا أريد التدخل .. اعرف انه يبحر من نهايتها الى قمة أحداثها .. دون ترتيب .. كما ترد الى ذهنه .. وكما تعذبه .. يتبع آثار آلامها ..

قلت لأشعره انى معه .. اتبعه واسمعه بكل نفس :

— بعض الناس يفسرون الصمت .. « ضعفا » .

(الصمت .. وآه من الصمت عندما يلازمك .. يفرض عليك او يحاصرك ..)

بدا كمن لا يسمع .. يواصل الهبوط فى جوف قصته .. يغوص عمقها .. يعود الى ظلام القهر والذل والصمت اللزج .. عاد يقول :

— ربما فرار الولد هو الذى جعلنى استمر .. هروبه منا وحد بيننا ..

(هكذا المأساة دائما ..) .

استمر : وجدنا على الاقل فى النهاية شيئا مشتركا — حزننا على الولد !! .

عادت مثل « حيوان جريح » تبكى وتنتحب .. واصبر على الى من أجلها .

(الرجل يقول عرفت ان صمتى هو ذنبى .. خطيئتى .. اتراه قد عرف حقا ..) .

ايكون كاتبا .. او شاعرا ضل طريقه واعتزل ..
رابض تحت اقدام فنار . .واكتفى بأن يحافظ على بقيـــة الشمعلة متـــدسية .. تهــدى العـــابرين والمارين فى اعـــالى البحار ..

كان يحلم أن يكون كاتبا .. شغلته الحروب الصغيرة التى اشتعلت داخل منزله .. هدته المعارك المتصلة داخل الحجرات .. والجحيم فى هيئة امرأة ..
سحقته الحرب الخفية وراء الأبواب الموصدة ..
كسر قلبه وقلمه وفر هاربا .. اختار منفاه حيا وصمت .
سألته : أنت تحب الكتابة :
— هى الطريقة الوحيدة التى اشعر بها انى مازلت اعيش اعامل نفسى بها كبشر ..

● وأنت معها — اقصد زوجتك — الا تستطيع تقيم حوارا معها .. نقاش .. محادثة ..
— لم تعطنى فرصة أبدا للتعبير عن نفسى .. كانت تنفعل لدى اى كلمة اقولها .. وتنقض كالطيور الجارحة ..

لا شىء معها سوى الشجار والنكد ثم تبكى .. وتندب حظها ..صدقينى هى طيبة فى اعماقها .. احبها منذ أن كنا صغارا نلعب فى حارتنا الصغيرة معا .. لكنها قادرة على افساد الحياة وخلق العراك بسبب وبدون سبب .. لا تعرف متى ترضى .. كل شىء يثيرها .. الطريقة التى أمشى بها .. امضغ الطعام .. اعامل ابنى بها .. سممت حياتى والولد المسكين .. فر منها .. نجا بجلده .. ترك لهـــا البلد وهرب احســـده على شجاعته .. اغبطه فى نفسى ..
هروبه يعزينى عن حياتى .. رغم شوقى لرؤيته ..
لكنه سعيد بلا شك .. بعيد عنها .. وعن شجارها ..

مهما كان مشردا ويهيم على وجهه .. الحـرية لا تقـدر بثمن ..

تتهمنى انى السبب .. لم اقدر على مواجهتها بالحقيقة .. تبكيه .. وتنتظر عودته ..

ـ الأبناء لايحتملون .. يهربون ـ ولكن مثلى لايهرب فات وقت الهرب .. من يبدأ من جديد ؟ من يقدر على بداية جديدة ؟ وهى كيف تعيش المسكينة بدونى .. من يعتنى بشـئونها .. لديها موهبة وحيدة « يفر منها الجميع » .. تصبح مهجورة وتندب حظها ..

عملى فى الفنارات كان نوعا من الهرب .. واكتب لهـا طائعا .. احدثها .. أشكو لها وأنا آمن هنا دون قذائف أو شتائم ـ لا ادرى ما أصنع بنفسى هنا والوقت ثقيل . أحيانا أصيد السمك مثلهم .. وأعاود الكتابة ..

أحيانا ألقى بالسمك الى البحر ثانية .. من فرط الملل .. على الورق أشتاق لبيت صغير أسكنه .. وامرأة فيه تحبنى وأنطق الشعر ..

أصدق نفسى .. أعود اليها .. أجدها كما خلقتها .. ولا تكون الا نفسها .. وينشب العراك من جديد .. أعود .. أعود الى الندم .. أخطأت بحق نفسى ..

يصمت .. يشرد .. ثم كمن أفاق على خاطر مفاجىء :

ـ معذرة .. ولكن انت خطيبة الربان

ـ من اين جاءتك هذه الفكرة

ـ انت .. لابد من اختارها

(غريب حقا أن يقطع ((المأمور)) مأساته ويسأل فجأة .. كيف يستشف الامور .. وياله من شاعر منفى ـ)

ووجدناه بيننا ·· بقامته المديدة·· وابتسامته المتوهجة.
— ماذا تقول أيها العجوز الماكر ؟
— معذرة ولكن أنت هنا منذ متى ؟
— تركتك وأنا أعرف أنك ستوجه لها السؤال :
أحسست بخجل وارتباك ··

وقف فى مواجهتى : هل أجبته ؟
اندفع المأمور : أنا عرفت ·· منذ البداية
— أطلب منها أن توافق اذن ··
— ماذا ؟ هى موافقة والحمد لله ·· الف مبروك ··
سرت أتعثر على حصا الجزيرة وأحجارها :
— ماذا ؟ لا تكاد تعرف عنى شيئا
— أعرف ·· كما أعرف انك موافقة ··

اقبل الآخرون يضحكون ويتحدثون ·· ماعدا عادل كان مزاجه لا يزال قاتما ·· استدار الى المأمور قائلا : سأنتظر خمس دقائق بعد تفريغ حمولة اللنش الآخر

ويتبعنا .. بعدها اقلع بدون رسالتك ..
— سأنتهى منها سريعا — باذن الله — ولكن عدنى — اذا لم أتمكن — تمر على فى طريق عودتك ··
أنت تضيع وقتى اذن ·· سأرحل دون الرسالة ··
— بل أنت كريم طول عمرك ··

وهذه المرة ·· من أجل ·· تنتظرنى حتى أكمل الرسالة ثم وكأن فكرة عبقرية واتته فجأة :
— أرسلها كما هى ·· وانتظر حتى المرة القادمة ··
يعود اللنش الآخر وراءك مباشرة .. لن اعطلك ..
لوح لنا مودعا ·· أكاد أرى الدموع تزدحم بين جفنيه

·· تركناه منفعلا كأقصى ما يحتمل ··

لم يبك من المؤكد طوال عمره ·· حتى فى اليوم الذى هجرهم فيه ابنه وغادر عالمهم الشقى ·· « بحر الدموع » — كما يصفها ··

بكاؤه كان « جافا » دائما ·· جف داخله ينبوع الحياة ·· ذبل على عوده ومال كسيرا تحركت عواطفه المهملة ·· تدفق وجدانه بمشاعر كانت حبيسة وهامدة ..

ابتعدنا عنه ·· يقف وحيدا على الحافة ·· استدار الربان الى ··

— ماذا فعلت به ·· للمرة الاولى يتصرف بطريقة مخالفة ··

يكتشف تلك البديهية الهينة ·· ينتظر للرسالة القادمة ·· فى كل مرة كان عذابنا .. يربك الدنيا ويعطلنا .. ونستعجله ·· ونستدعى اللنش بصفارة السفينة ·· فماذا جرى ؟

قلت ومازلت مأخوذة — بما حدث ..

— ما تظن الشىء الهام الذى يؤجله دائما لآخر الرسالة ولا يكتبه أبدا ؟

رد بأسى : ربما هو نفسه لا يدرى ..

اقتربت أمل : هل حكى لك « الأمور » جديدا فى قصته

قاطعها تقريبا : بل وسائلها عن حكاية أخرى

اندفع بلال : اذن فقد تغير ·· واهتم بحدث آخر فى العالم .. غير خلافه مع امرأته أرأيتم .. كيف السلام عسيرا بين اثنين من البشر ؟

اندفع « شوشة » هو الآخر — بالرغم من وجود الربان وخشيته :

– سألنى أن أحدثه بسرعة عن الســـيدة المؤلفة – وعما تكتبه –

هتف بلال بصوت حاد : ألم أقل لكم ·· تغير الرجل ·· ربما للمرة الاولى فى حياته أخبرنى أنه فتح قلبه للسيدة ·· وأحس براحة ·· كأنما أمضى عمره فى الفنار ينتظر مجيئها ليتحدث معها ويحكى عن قصته ·

كان يستمع الينا ·· لكنه توقف فجأة ·· فاضطررنا الى الصمت ·· تلفت قال :

– أشم رائحة خطر ··

غير فجأة طريقة السير ·· واتجاهه وتوغل بنا بعيدا عن السفينة مرة ثانية ··

– أين اللنش الآخر ..

من المفروض يتبعنا ·· ربما توقف ·· تعطل ·· والريح تجرفه تأخذه بعيدا عن الفنار ·· والسفينة ··

ويضيع طوال الليل منا وقد لا نجده مطلقا ·· سرنا فترة من الوقت متوترين وصـــامتين تماما ·· واخيرا لاح لنـا اللنش ·

اقتربنا منه وجدناه بالفعل متعطلا ·· بعضـــهم يحاول تعليق قميصه على المجداف ليلوح للســـفينة ·· وآخرين يحاولون اصلاح الموتور ··

وهللوا جميعا وصفقوا وقد وجدونا فجأة بجانبهم ·· هتفوا جميعا ··

– كيف عرفت يا قبطان ·· كيف عرفت ··
تقدم بلال وسأله جادا ·· كيف عرفت ياقبطان ··
« شممت الخطر » ·· كيف ؟
– فى البحر اعتمد على حسى دائما .

– ٤ –

اسندت راسى على حاجز السفينة ·· أخذت أحدق فى البحر من قال انه ساكن جامد ؟ ·· يتغير المنظر فيه كل لحظة ·· واحيانا تنطلق الخيول البيضاء فى عرضها الجميل وسباقها ··

يتبع الانسان الرءوس الظاهرة منها ·· ويحدد فترات الفوز فى حياته ··

●

مشغولة بمأساة « المأمور » منذ الامس ·· أقلبها فى ذهنى على وجوهها ·· قلت للدكتور زهران عند عودتى :
– رايت فى الفنان أحد الهاربين العظام ·· من الحب والانتماء – كما توقعت ··
بطل تراجيدى لا يستطيع الحياة مع زوجته أو بدونها ·· يفترقان ·· ويظل يكتب لها يحدثها ·· يسالها ·· يحكى لها .. ويرتفع حرارة الكلمات ويتأجج الحنين والشوق .. حتى ليحلما باللقاء .. ويندفعا اليه .. وما أن يتم حتى تعلن الحرب فى الشقة الصغيرة المواجهة للبحر .
وتتناثر القذائف والصواريخ والحمم ·· ويترك الميدان ·· يولى هاربا ·· يقذف بنفسه مرة أخرى الى قلب الجزيرة النائية ··

ـ علاقة غريبة بين جلاد وضحيته ـ

قال الدكتور زهران ‥ من الصعب تحديد الاتهام على هذا النحو

ـ كلاهما مذنب ومجنى عليه ‥

مفاجاة الموضوع : أنه مازال يحبها !

قال انه لم يستطع مواجهتها بالحقيقة ‥ يهدمها تماما لو فعل ‥ تستحق العقاب لكنه يشفق عليها ‥ ولم يشأ ‥

الابن فر من قسوتها والنكد ‥ يحلم بمدن مسحورة بعيدة ومضيئة ‥ اتهمته انه أفسده ‥ حكى له عن البحر ‥ أغواه بالهرب ‥ حاول يخفف فجيعتها ‥ فهى حياته ولن يعيشاها له .

وهكذا ترك نفسه ـ على حد تعبيره ـ للصدأ ـ كان الوقت قد مضى ‥ ليبدأ من جديد ‥

(احيانا ينظر الانسان للشبح الماثل امامه ـ وكان يحبه يوما ما ـ كمقبرة ‥ شاهد مقبرة ـ يرقد فيها الحبيب ‥ ولننظر كم يدوم وفاء الاحياء ‥ للموتى الاحياء)

شغلته الحرب بينهما عن العالم ونفســـه ‥ وكل شيء يحيط به ‥

يشـــعر بالنـــدم يقـــول : « تركت نفسى بلا حب حقيقى ولا أصدقاء »

اكدت لنفسى أن اكتشف الكتابة ‥ لكنه اكتشـــفها من الناحية الخطأ ‥ كاجراء فقط لعدم امكانية قيام حوار معها او تبادل نقاش او اجراء مفاوضـــات للصـــلح او الهدنة المؤقتة ‥

يستغنى عن الدنيا والاخرين ·· ويظل يكتب لهـــا ··
ويخاصم زميليه فى الفنار ولا يترك لنفسه فرصـــة اجراء
اختبار اجتماعى بسيط له ··

ومع ذلك اشعر به كانسان ·· منجم من الذهب لم يكتشف
·· ظلت تهيل عليه التراب والاحجار وأوصد فتحاته وأبوابه
جيدا ·· وظل متيبسا جافا فى قلب الارض ·

لا أحد يدرى معدنه الثمين ·· ولا أى ثراء يحويه ··
ربما ولا هو نفسه ·

رأيت أمل تتقدم ناحيتى مع بلال والربان زياد ·· اين كان
ثلاثتهم ؟

قال بلال : كما توقعنا ·· اكدنا للقبطان ·· سنجد نور
منفردة بنفسها تشغلها حكاية مأمور الفنار ··

سألت أمل : وهل هو موضوع المسرحية القادمة ؟

لا اقبل منك دون الزوجة « النكد » هذه · ابحث لك من
الآن عن بطلة أخرى ··

قال بلال : دراما غريبة حقا ·· لكن النهاية فيها مفتوحة
مثل مسرحيتك يانور

أمل : بل هى دائرية ومغلقة ··

المأساة فيها مغلقة على أصـــحابها ·· وسط عالم يموج
بالخلاف والحرب والقسوة

بلال : يدور قتال وحشى داخل حفرة .. حجرة بين اثنين
من البشر

قلت : ـ كنت اتساءل بالفعل كيف تتحول قصة حب الى
معركة وينهزم فيها الطرفان ··

أمل : حب ينقلب الى هزيمة

بلال : رباط زوجية يتحول الى عقد هوان ··
حلف يتردى الى استعمار
تتبع النقاش دون أن يشترك فيه ·· من الواضح أن لديه فكرة اخرى عن الموضوع – اكتشفت أسلوبه فى التفكير ·· هو من النوع الذى يمكن أن يقوم بعدة عمليات ذهنية فى وقت واحد ··

كان يركز على ليرى كيف أتتبع الحوار من الخـــارج والداخل ··
(اطمئن فهو أسلوبى أيضا فى التعبير ··)

قال فجأة : عجيب أمركم ·· كل شىء تحولوه الى قضية سياسية ؟ تتبعت أمل مسار نظرته وهو يلقى بســؤاله ·· ابتسمت لى بمكر جميل كأنما اكتشفت حقيقة ما يجرى ·· سألته :

– وأنت كابتن زياد ·· ماذا عن نظرتك الى الحب
وأجاب على الفور (**البحار الذى – يشم رائحة الخطر – ويسير بحســه فى البحر ·· وتعلم « الحـــذر » منذ بداية رحلته ··**)
– معركة ينتصر فيها الطرفان ··

ضحكت أمل طويلا ·· وتصاعدت ضحكاتهم جميعا معها
– أبشروا اذن ·· فهو سياسى مثلنا :

●

أسلمت وجهى لله ·· وسبحان فالق الاصباح ··
جعلت أملأ صدرى بالهواء ·· « هواء صبى » يبزغ من عصر البراءة والنقاء ·· أتنفس بعمق ·· رائحة نظافة ·· (فى البحر يشم الربان رائحة الخطر ·· يدرب حسه على أن يمتد

وينتشر ٠٠ يحيط بالافق البعيد ٠٠ ويستشرف ذرات أحداث قادمة ٠٠

فى الانســـان قوى مبدعة ٠٠ من يدربها على الســمو والتسامى تصل به الى عنان السماء ٠٠ اذ أن كل ما اخترعه من معدات انما هو صورة لما لديه من قدرات) ٠

تمطى فى الافق شعاع وسنان ٠٠ ذهبى مشبع بقطرات الماء ٠٠ وأخذت تتوهج وجنتى السماء وتتبدى الشــمس ضاحكة مستبشرة ٠

فاذا قدر لك أن تعلو سطح مركب ذات يوم ٠٠ تشق بك صدر البحر فاحرص أن تكون فى الشروق حاضرا ٠٠ ليس كمثله شىء ٠٠ مشـــهد يلازمك بعدها ما حييت ٠٠ ويظـل مطبوعا فى ذاكرتك بخيوط من نور ٠

صورة لديك تومض لحظة فتزيح أمواجا من العتمة ٠٠ وتلالا من الآلام ٠٠

تنبثق المعجزة داخلك ٠٠ وتعود متجددا كالصباح ٠٠

تندفع فى خيالك مثل تلك «الجياد البيضاء» غايتها الغناء فى محيط الحب الالهى .. وجذب انتباهك الى اعمدة الضياء ..

اقبل د. زهران والابراهيمى .. كان من الواضح انهمـــا يتجولان — من قبل الشروق .. يسريان عن حديث احتـــدم بينهما ونقاش ..

تهلل الدكتور : ها هى نور مبكرة .. تحكم بيننا ..

— مباراة ساخنة سيدتى امتدت بطول الليل وحتى الصباح ...مع استاذنا الدكتور يجب أن نهجر النـــوم .. ونستمتع بصحوة الأفكار والذكريات ..

كان الدكتور بادى المرح والنشاط .. لديه شهية متفتحة دائما على الحياة ..

— اخواننا الجزائريون .. مفتاح الشخصية لديهم كلمة « نضال » ذكرتها .. عفوا .. فتدفقت علينا الأحداث والحكايات « مثل خيولك البيضاء » ..

(يداعبني الدكتور برقه دائما .. ويذكرني عن عمد بالريان — ترى اين اختفى بالأمس ؟ — وكيف لم يجنبه حسه الى اشراقة الصباح ..)

اكمل الدكتور حديثه : الابراهيمي — كما تعرفين — مناضل قديم .

— وبالمناسبة — كان صديق كاتبك العظيم « مولود فرعون » وحضر عملية موته .. تلقاه بين ذراعيه » .

هز الابراهيمي رأسه بأسى — دمعت عيناه .. كأنه يراه الآن .. رأسه متدليا على صدره —

(أعرفه — مولود فرعون — كلماته نمت فى صدرى .. احببت من خلاله ارض الجزائر تجولت معه فى الريف .. سرت بجانبه على الدروب .. نفذت خلال الدور المعتمة .. « والتى تتراص كأنها فقرات هيكل حيوان منقرض قبل التاريخ » — كما صورها فى رواية ابن الفقير — وعمل بالتعليم — كان يؤمن بجدوى التعليم فى احداث التغيير — ومع ذلك قتله جنود الاستعمار — قبل أن يرحلوا — نفذوا مهمتهم الاخيرة قبل وقف اطلاق النار .. والرحيل .. قالوا ام نكن نعرفه .. عندما سألناه عن مهنته : أجاب معلم اطفال .. قتلوه .. مثل جارسيا لوركا .. قتلوه .. تحت نجمة الصباح ..)

— الى اين ذهبت يا نور ؟

الى الجزائر .

— معذرة يا ابنتى .. عكرنا عليك اشراقة الصباح وذكرناك بمصرع كاتب فنان .

— وهل كنت لأنساه .. ؟ ..

(هم موتانا الأحياء .. لأصدقاء الأحياء .. طابور طويل من العلماء والمفكرين والشعراء .. نحملهم داخلنا الى الأبد .. مكونات نفوسنا .. ومداد أقلامنا .. لايهم ان كان الموت بكاس السم .. بحريق .. او رميا بالرصاص .. ابحث عن ميتة جميلة بينهم .. عند الظهيرة .. بدل أن يموت الانسان هكذا كمدا وقهرا فى بطن الحوت .. تحت عتمة الظلام ..)

— ولكن فيم كان الخلاف .

استرد الابراهيمى هدوء نفسه .. تنهد براحة وقال :

— تختلف بقضية الايمان ..

رد الدكتور بسرعة : حدثته عن اقتناعى بوجود ثواب وعقاب فى الحياة الدنيا — كما فى الاخرة .

والسيد الابراهيمى يرى أن ذلك مقصور على النهـاية — وبعد الحسـاب .

بدليل أن الظلم يطغى ويستشرى فى كل آن .. ومكان والله جل وعلا — يمدهم فى طغيانهم يعمهون .

توقف لحظة دكتورنا أدرك لحظة التحفز تجتـاحنى .. حاول تهدئتى .. قال حانيا ..

— وهل لاحظت يانور كلمة « يمدهم » من مـد الماء .. الزيادة والطغيان ..

قلت على الفور : توجد أكثر من اية صريحة يا سيد ابراهيمى تؤيد رؤية الدكتور .. مثلا .. خزى فى الحياة الدنيا .. ،

تابعنى الدكتور : ذكرت له أمثلة كثيرة .. « فلنحيينه حيـاة طيبة .. » لكنه يقول « هى طيبة بالايمان » .

الابراهيمى : وخزى الدنيا أيضا لضلالهم .. وسوء عملهم .

وانقضت : رفقا بنا يا سيد ابراهيمى ..

يوجد ثواب وعقاب فى الحياة الدنيا أيضا .. وذلك يثبت قلوبنا بالايمان ..

(يجعلنا نحتمل اكثر .. نصبر ونصابر .. مثل أولى العزم من الرسل ..)

الخزى هو الشعور بالمهانة والعار .. الضيق وفقد العزة وطمأنينة النفس .. فانظر حال الكفار العتاة .. أو الظالمين .. الأثرياء الأقوياء .. — نحسب أنهم متمتعون باللـــذات والجاه .. ولكن لو تعمقنا رؤية حقيقتهم .. لأدركنـا كـم يعانون .. يعيشون فى خوف ووجل واكاذيب من أجل الا تنكشف اعمالهم — لا يحترمون ذاتهم فى اعماقهم — مهما تظاهروا بغير ذلك وتحصنوا بين الأتباع والقلاع .. والبطش ..

« الخزى » من انصراف الطيبين الصالحين عنهم .. وهو من اشد انواع العقاب .

وصدقنى — لايبطش سوى الضعيف .

اتسعت عينا الابراهيمى — لعله دهش من حرقة الكلمات — واشار بكلتا يديه :

— اصدقك والله يا سيدة نور .

لا يوجد حد فاصل بين « الدارين » .. بهذا الشكل ..

ما هى الا حياة واحدة متصلة — لا يمكن قطع الصلة بين المقدمات والنتائج — كان الدكتور يشفق على من ثورتى واندفاعى .. تعالى صوتنا وبدأنا نجذب كثيرين ..

حاول تهدئة الموقف .. ولكن .

(لنقذف ببعض ما فى جوفنا الى البحر .. نضع احمـالا قصمت ظهورنا ..)

تلفت الابراهيمى حوله بعصبية : وين زميلكم « عـادل عبد الوهاب » ..

ضحك الدكتور : ما اظن يصحو فى هذه الساعة ..
لنعود مرة اخرى الى حديث الذكريات ..
عندما كنا فى المعتقل .. وفى واحـدة من حفـلات الرقص الليلية ـ حامية الايقاع ··
نسينا انفسنا .. واخذنا نضحك .. نسينا من أين تهب لدينا الذكريات .. والنوادر .. انضم الينا بلال وامل ـ كان قد صعدا توا فى صالة الطعام ـ ونسينا نحن ايضا ـ وجبة الانطـــار ..
ـ يفتح البحر شهية الحكايات والذكريات ·· وتتداعى معه الصور والكلمات ..
قال بلال : يا صباح الخيرات ـ كما يقول القبطان ـ
تتحدثون ـ عن المعتقـلات ـ هكذا على الريـق .. فى الصـبـاح ..
قالت امل : وعند الظهر عن المخيمات واللاجئين .
وقال الابراهيمى منجذبا الى عالم النكت والقفشات المصرية ولذع التورية والتشبيهات ـ رغم المأساة ..
قال : وفى الغروب نستنشق شذى دماء من التهمهم ..
القرش فى بحر العرب ..
قلت وقد لاحظت صمت الأستاذ وبلال :
ـ الحمد لله .. للمرة الأولى نستفيد من بشرتنا الداكنة ..
فلو قذفتنا المركب .. لن يأكلنا القرش ..
صاح الابراهيمى : وانا من القبائل ··
حسنة وحيدة للقرش الرهيب ·· يحنـو على الـزنوج والملونين .. ولا يلتهم ذراعا أو ساقا سوداء ..
(قال لى تلائمك الشمس ·· يشـير الى سمرتى واغضيت حيـاء) ..

قالت أمل : لا تركنى كثيرا لهذه المعلومة يا نور ..
القرش غادر .. ولكن ..
ماذا عن حفل السمى يا دكتور زهران ..
اجابها بلال : حفل راقص ..
هكذا يلذ لدكتورنا وصف نوبات الضرب فى المعتقل ..
ـ والكل يرقص على طريقته ··
قابلت أمل : وتبعا لموسيقاه الداخلية يا نور ..
تنهد الابراهيمى : ما بدها تفسير أخ بلال ··
اما ترانى خريج معتقلات عتيد ..
هتفت أمل ضاحكة : أجازة الفنون من حصن الباســـتيل
اكفهر وجه بلال فجأة ·· ماتت الضحكة فى مهدها ··
ـ هدمت الثورة الفرنسية سجن الباستيل المشـــئوم ··
قالت امرأة من الرعاع « نهدمه بأظافرنا » .. ما بال الثورة العربية تبقى على السجون والقلاع ..
للذكرى أم نذير ·· أو لأعوام قادمة من الضياع ··
وجمت أمل .. حاولت الخروج بنا وخاصة بلال من الكآبة :
ـ لو كان القبطان حاضرا .. لقال على الفور عجيب أمركم كل شىء تجعلون منه‌قضية ؟

اشتد وهج الصباح ·· تداخل مع خيوط الضـــحى ··
ضجت السفينة بالعمل والحركة ·· مثل خلية النحل ·· اقترب منا طارق .. وقف فترة يرقبنا .. ثم عاد مع أكواب الشاى ..
عاد بلال الى مرحه ـ الى يا طارق يا بن زياد ..
أسقنا من الشاى المعتق .. مشروب المناضلين والأصدقاء .
كان الدكتور زهران يتابع ما نقول .. غير انه هناك على حدود عالم الذكريات قرب أسوار معسكر التعذيب ·· والغريب أن وجهه يعنى ـ رغم كل شىء ـ وجه قـــديس أو شـــهيد

(يعنى الكثير لدينا هذا الرجل ·· قيمة كبرى فى حياتنا ··
اب .. فارس .. ومعلم.. و .. لا اجد على لسانى سوى
كلمة ((شهيد)) مرة اخرى .. ينفرط عقدنا او حدث له شيء) ..
أردت ازاحة مخاوفى أستعيد طمأنينة نفسى بسماع حكايته
كان يهم بقصها علينا ــ لكن أكواب الشاى صفت أمامنا ··
وشغلتنا الملاعق ودورات الذوبان ··
حرص طارق ان يضع أمامى كوب « شاى سكر بسيط » ..

(يهتم بى الفتى .. لذاته .. أم يشعر باهتمام القبطان ..)
كنا دائما كذلك نحتفى بالشاى .. حتى الدكتور يرشفه على
مهل وباستمتاع .. أخبرنى طارق مرة انه خريج مدرسة
الأيتام البحرية ··

حصل هذا العام على الثانوية .. وينوى التقدم لامتحان
البحر .. شجعت طموحه .. توقف قال : لك اهتمام
أم وحنانها ·· ــ ويدعونه طارق بن زياد·· لتعلقه بالربان ــ
هل تصدق النبوءة ·· وترتبط الأم بأب الفتى
قلت بصوت مرتفع : عودة الى الدكتور زهران ..
دعونا نسمع قصته عن « معسكر الرقص العام » ..
ابتسم ·· وجهه لايزال مترعا بالبشر والبهجة ··
« بعد ليلة ليلاء .. دعانا المأمور فى الصباح .. أخذ
يستعرضنا ويتسلى بنا .. نظارة صديقى الطبيب كانت قد
كسرت فى الاحتفال » .. لا يكاد يرى بدونها شيئا .. وعيونه
ذاهلة متورمة ..

سأله المأمور عما « صنعه بنفسه » .. لماذا يبدو كالمجنون .
لم يتبين الدكور أنه يوجه سؤال اليه ·· وقام المأمور
وصفعه بعنف :
ــ لم لا ترد يا ابن ..

انهار صديقنا الطبيب تماما ــ الضرب أو الرقص الجماعى .. محتمل ربما .. ولكن هذا الاذلال المتعمد .. والصفع أمام الجميع ..

انهار الجبل الشامخ .. أخذ يهذى .. « اهانة .. مذلة .. جرحت كرامتى .. كيف اواجه طلبتى .. ماذا اقول لهم فى المحاضرة .. ماذا أعلمهم .. »

استمر د. زهران : قلت له .. هذه مسألة لا دخل لها بالكرامة ..

ضعفك ــ هذه حقيقة ــ أو واقع كما تسميه ــ يخشاك ــ فى اعماقه ــ مذعور منك ــ فى داخله ــ يشعر بفقدان الاحترام ..

دارى ضعفه امامك .. وضآلته .. تطاول ولطمك على وجهك ..

نزلت كالصاعقة على وجوهنا معك .. ولطمت جبين الأمة كلها ..

هو الذى تخلى عن كرامته .. وأهدر كبرياء الانسان فيه ..

نهض الابراهيمى وكان بالغ النحافة والطول .. وصل به الانفعال الى مداه .. قال وهو يهتز بشدة : أبقاك الله يا سيدى ..

نتعلم منك دائما ..

لا شك أن صديقك الطبيب هدأ بعدها ..

حساسية فرد وجرحه لا يقاس بكبرياء أمة ..

(هزنى انفعال مجاهد جزائرى قديم .. لكن استوقفتنى عبارة ((أبقاك الله)) دعاء من عمق التأثر .. ما نوع الكلمات التى تحيط بأساتذتنا اليوم ..)

مرة أخرى أحاول ازاحة نوع غريب من القلق :

قلت : وهكذا أيها الصديق .. « أحاط الخزى بالمأمور .. وارتد كيده الى نحره » ..

ردت امل بدلال : فرق هائل بين مأمور الفنـــار .. وهذا المأمور .. تأمل بلال قولها : مأمور الفنار المسكين .. عندما استبدت به زوجته ..

احتضن كرامته « وابلغ فرار » .. هرب .. أو اعتزل .. لكن مأمور الشؤم هذا .. قاتله الله واخزاه ..

قلت : « والخزى » عقاب فى الدنيا — لو تعلمون عظيم ..

تنهد الابراهيمى : عندك حق ..

قلت : وهكذا لم نعد نختلف فى قضية الايمان ..

اعتدل الدكتور زهران .. ذكرتنى نور بالاية الكريمة .. بل وهناك نص صريح — كما تقول — واشارة بالغة الحكمة على وحدة الامة ..

سأل بلال باهتمام بالغ : أتلو الآية يا ســـيدى الدكتور من بدايتها .. لنتابع المعنى معك ..

اعتدل الدكتور زهران .. ذكرتنى نور بالآية الكريمة ..

سأل بلال باهتمام بالغ : أتلو الآية يا ســـيدى الدكتور من بدايتها لنتابع المعنى معك — أخذ يتلوها بصـوت عذب بالغ العمق والنقاء — .

« واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم .. »

الى قوله تعالى :

« فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحيـــاة الدنيـــا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب » .

هتف الابراهيمى : سبحان الله .. يشير جل جلاله الى وحدة الامة لذلك كان تفسيرك ملهما يا دكتورنا العزيز ..

بعد فترة : واظن الخطاب هنا كان موجها الى اليهود ..

كانت أمل تتبع المناقشة بوعى وذكاء كبير .. كانت كمن تبدى لها طريق جديد .. تتبعه برهبة وانبهار ..

قلت : وهو موجه الينا — وحتى اليوم — أمة المسلمين .

هب بلال : سفكوا دماءنا وأخرجونا من ديارنا .. ومن ابنائنا وارضنا .

اعترض الدكتور بهدوء :

— انتظر بلال .. هناك معنى اشمل ..

ان يفعل بك الاعداء .. امر مفهوم .

اما من يفترسك من الداخل .. من يشردك .. ينفيك .. يسفك دمك فكأنما يسفك دم نفسه .. ويخرجها من ديارها. ويهدر كبرياء امته وشرف الانتماء اليها ..

التهب جوف بلال وصوته وكلماته .

حقا .. أحيانا يأتى الخنجر من الاهل والاخ والصديق ..

ما كانت المأساة لتتعمق بهذا الشكل لو اننا ادركنا هذه الحكمة الربانية وعملنا بها .

اقره الاستاذ الابراهيمى : قوام أمة .. واستقامة على الطريق .

صاح بلال من جديد : لماذا لا يحس كل منا ان دم أخيه هو دمه .. واخراجه من دياره يعنى اهدار حقوقه .

وأشرق صوت الدكتور بالدموع : ما كانت المأساة لتحتدم لو اتبعنا شريعة الله العادلة .

(يسفكون دمنا .. يقتلوننا داخل انفسنا .. يخرجوننا من ديارنا وجلودنا منفيين داخل أوطاننا .. يشردون امتنا .

مرة اخرى ينهض الابراهيمى ــ مقررا أمرا ومعلنا له :
ــ قضية الايمان ــ كما الحرية لا تتجزأ ..
حلق فوق رءوسنا الصمت ·· ظللنا واجمين ··
شحب لون امل .. امتقع وجهها ..

قالت هامسة : أمن هذا النبع استقيت « نور » هتاف أهل القرية فى المسرحية ؟ من هذه الآية المتصرة :
ــ « ثم انتم هؤلاء تسفكون دماءكم ·· وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون علينا بالاثم والعدوان ·· »
تشردوا امننا ــ ونحن حماة امنكم ــ تسرقون البيوت ..
وتعتلون الحجرات » ..

امل تبدو مأخوذة بدورها فى المسرحية ·· تنظر اليه من وجهة نظر جديدة ايضا تدافع عن اهل القرية كلها .. وليس موكلها البحار العجوز .
تعيد جملة أخيرة من دفاعها :

« ليس حادث سرقة .. ولكنه قضية حياة .. تنتعش روحها .. تعود لمرحها ..
ــ وصديقنا الربان يتعجب من أمرنا ·· فكل شيء ··
نحيله الى قضية سياسية .

يقترب عادل .. يتبعه عن قرب شلة الشباب .. ومنى .
يقول عادل بصوت اقرب الى الغضب :
ــ اهو اجتماع ؟

بحثت عنكم فى كل مكان ولم اجدكم ·· حتى قاعة الطعام ..
.. وغرفة القيادة لدى الربان ..
ــ يبدو انه يسخر منى هو الآخر ··

اذا اطل فى البحر كمن يبحث عن شيء ‥ وقال « ليسـوا هنـا » ..

تندفع منى : فيه بروفه ؟ لم يخبرنا احد ..

يهتف الشبان بصوت واحد : ومن يتحدث باسمنا ‥

ينبرى محمود بلهجة مسرحية : نحن اهل القرية .. من يجسر على العدوان .

علينا ؟ .. لص يقاضينا ؟ وقاتل يطلب .

فدية ؟

ينهض بلال وكأنه اتخذ قرارا ما (يقـول اخترت المسرح لأنه أرض نضال ‥ أرض عربية اقف عليها .. واخاطب من فوقها أمتى ‥ أدعوهم للاختيـار الصـعب ‥ لأجد ارضا .. ولا أصير انا وحبيبتى وابننا — الذى لم يولد بعد — معلقين هكذا فى الفضاء) ..

يعلن بلال قراره : اليوم بروفة .. غدا نعرض مسرحيتنا على البحارة ..

قلت لنفسى (يازمن الوعد ‥ اليوم وغدا ‥ مسرحيتى تتجسد ‥ وتنبض حياة ‥ على المسرح ‥ بارض النضال ‥ من فوق الجارية فى بحر العرب ‥ تخرج حقا من الظلمات الى النور ‥ اتجاسر بالحديث عن قريتى ‥ ادفع عنهـا الضر ‥ أحكى لكم قصة ملامح يعود ‥ يعود الى الديار ‥ وغدا نعاود الحكاية من جديد) ‥

توجهت الى غرفة القيادة .. قلت اخبره عن عـــرض المسرحية ..

أمام الباب المؤدى اليه توقفت ‥ اشتد خفقان قلبى .. .. كأنى عدوت المركب بطوله .. أو شردت عن فـــريق « الخيول المتمردة » .

توقفت .. اعد نفسي للقائه .. اعيد ترتيب افكاري ..
الباب الخفيض يجعل من يريد الدخول ينحني .. تلج مكانا متديا .
أنا أمام معبده .. هل اهتمامي من اجل عرض المسرحية .. فوق سفينته .. وأمام طاقمه .. أم انى حملت الرسالة لأراه ..
(تغيب عن جمعنا يوما باكمله) ..
طالت وقفتي .. عزمت على الاقدام .. وجدته أمامي .. يميل في اتجاهي ليتفادى الانحناء .. يضج به المكان .
ـ تفضلي ..
كنت بانتظارك .. لماذا ؟ اعرف لابد تأتين ..
وكنت على وشك استدعائك .. واحسست ..
بك قادمة ..
ـ جئت اخبرك ..
أطالت على النظرة الغامضة .. الحانية .. ومالي أقدم الأعذار .. أربتك .. أمور مقدمي .. أتيت وانتهى الأمر
(قالت لى نظراته نفس الشيء .. « اتيت وانتهى الأمر .. وكنت اعرف انك لابد قادمة » ..) واكسدت لي كلماته ما يفكر فيه ..
ـ قلت لك تنتمين الى عالمي ..
وجودك بغرفة القيادة اذن طبيعي للغاية .
سبقني في الدخول (يتصرف بحرية واسعة .. من ينتمي الى البحر .. لايتقيد برؤيتنا المحددة) .
شملتني رهبة التواجد في مكان للعبادة ..
انصرف عنى تماما .. اخذ يلقى بأوامره .. يتحركون كما لو ان قوى اثيرية تربط بينهم .. بعد فترة اقترب ..

ـــ ما تودين قوله ؟
اشرت بيدى ان لاشيء .. ماكنت لأنطق فى موقع مقدس كهذا ..

داخل محراب .. امر لنا بأكواب الشاى فى مكتبه ..
ـــ ماذا عن المسرحية ..
ـــ ننوى عرضها ..
ـــ اعنى المسرحية الأساسية ..
ـــ بدات تهتم بالمسرح ..
ـــ وما البحر الا مسرح هائل ..
والآن ·· ما أخبار بحارك العجوز ·· ؟
ـــ اتدرى لو اننى عرفتك من قبل .. لضاع على ..
امل دور عمرها .. وجعلت البحار يتحدث عن نفسه .

ـــ وتصرين على اننا لم نلتق ..
على كل ان تقولى « عنى » هذا افضل ..
خط دفاع لى ·· ومحامية أيضا تؤمن بعدالة ··
قضيتى .. وبراءتى ..

حدثت نفس (وتقول أنك لم تهتم بالفن ··)
ـــ البحر أبو الفنون جميعا ..

(البحر هو .. وأنا بعثت ذات يوم عـــلى شاطئه .. اعرفه قبل ان أولد .. كنت اتصل بحركته .. وارتفـــاع المد فيه ·· أعشق البحر من الأساطير القديمة ·· وغـربته ·· وقصائد الشعر) ·

ظهر احد البحارة على الباب .. قال الفتى شيئا بصوت خفيض كلمة بها حرف « شين » .. قالها واختفى ..
قلت : هل ..

فوجئت به يقفز .. دفعة واحدة .. أصبح خارج الغرفة واختفى ·· ظللت دقائق ذاهلة ·· لا أدرى ماذا أصنع بنفسى ·· أو أعى ما حدث ·· لم يكن هناك أدنى اشـــارة بوجود خطر ما .

نوجه الفتى كان ضاحكا .. مشرقا .. مستبشرا وسريان البهجة الى كيانه وهو ينقضى خارجا كان لمفاجاة حبيبه ·· وشوق غامر .. وجدت نفسى وحيدة صامتة ..

كيف لم يدعنى اكمل جملتى .. غادرنى هكذا .. دون اذن أو اعتذار .. كلمة واحدة يطلب منى الانتظار .. أو الذهاب معه ..

هب كالعاصفة وانطلق ..

هدوء لازج .. بارد يسرى فى انحائى .. (كالبحر يغدر .. يقلب صفحته) ..

اخذنى على غرة ·· جعلنى فى غمرة ··

ولكن لابد من تفسير ..

اغضب .. انصرف .. أبقى ..

لحظات ثم عاد ·· عاد متهللا كأن لم يحدث شىء ·· ولم يتصرف بغرابة ··

ـ اعددت له منذ بداية الرحلة ·· اخيرا وقع فى الشرك ··

الأمر كله يتعلق بلحظة خاطفة ـ تقلبينه ـ يصـــبح تحت رحمتك .. تركتهم يرفعونه بالونش ..

ظللت أحدق فيه بغرابة ـ تقرب من البلاهة ··

قال : « القرش » .

(كلمة « الشين » التى سمعتها .. قرش .. « شارك » ·· وله أعرف ما هو ؟) .

– الهذا السبب نهضت مسرعا :
— خطفته .. وعدت ..
قلت لك الأمر لا يستغرق سوى لحظة ·· لكنها تساوى ·
(لحظة ·· قد تساوى العمر كله ·· يعمل الانسان فيها عقله ·· يقبض على فرصته ·· تبرق فيها تلــك الشرارة المقدسة ·· ويصل الى لحظة التنوير) ..
عاد مزهوا ·· منتصرا ·· متحديا ·· بحثت عن غضبــه فى أعماقى ·· لم أجد ··
— هبه .. ماذا كنا نقول ؟
(هو البحر .. خرج على القرش الرهيب .. انقض عليه فى لحظة خاطفة .. تمكن منه .. ناله .. ثم ترك بحارته يجهزون عليه .. وعاد يكمل حديثنا) ..
(— يجب الحذر —) ..
يبدو أنى نطقت كلماتى لنفسى بصوت عال سمعها ·
– مادام بحارك بطــلا ·· فواجبه « الحــذر » هو درس البحار الأول ·· عندما يكون الجو عذبا ·· رائعا ··
ربما تجدينى « أجهز » للعاصفة ··
(عاصفة ·· هو ·· عنيف · منذر ·· ثم يعود صافيا ·· كان شيئا غريبا لم يحدث ·· تقاطع حاد لم يقع ·· فاز على خصمه بالضربة القاضية فى بداية الجولة .. وعاد ينصــت ويستمع ··) ·
قــررت امام نفسى : (كسب اعجــابى .. وخــذل مشاعرى) ·
صــعدت اعلى المركب (بدات اتــوق المغامرة .. بحــر الكلمات لا يغرينى ·· متعة قفزة خطــرة – رحلة صــيد وحشية) ..

سنة كاملة اعكف فيها على كتابة مسرحيتى .. اعتكف
وراء مكتبى . احيا بين جدران حجرتى « راهبة » ..
على اخرج « للحقيقة » غازيا .. الكاتب صياد هــــو
الآخــــر ..

يصيد الحقيقة من قلب البحر وبطن الجبل .. من الخطر
الكامن فى كهوف الشعاب المرجانية القانية) .
التقيت « بعادل » يهبط الدرج .. كان عابسا .. لايستمتع
بالرحلة .. ويجد دائما شيئا يثير سخطه ويغضبه :

قال : صديقك الربان كان يستعرض .. اصطاد قرشـــا
هائلا .. كان يفضل لو اننا بعثة تليفزيونية أو ســــينمائية
لنصوره .
(كمن ألقى بحصاة صغيرة على سطح بحيرتى الرائعة) .
قلت أغيظه : نسيت .. معكم كتابة تجيد تصوير المشهد
والبطل ..

ــ حقا كان يجب أن تكونى موجودة .. أشادوا به جميعا
.. وصار مزهوا معجبا بنفسه .. يتمايل باتقان كراقص
يؤدى « بالحركة البطيئة » .
ــ كنت حاضرة .. ارقب المشهد من داخله ..

وانصرفت عنه وهو ذاهل لا يدرى ما اعنى تماما .. ولا
كيف يفهمه .

كان الدكتور زهران يقرا فى نسخة عمل من المسرحية ..
صفت الموائد أمامه لاجراء البروفة الاخيرة قبل عرض الليلة
القـــــادمة .
تلقانى منشرحا .. مرحبا ..
ــ فاتك مشهد رائع يا نور .. اين كنت ؟

أصطاد القائد « قرشا هائلا » .. لو شـــاهدتيه فى
« المناورة » ظل يضيق عليه الخناق .. ويحيط به .. ويحكم
دائرة الحصار .. حتى لقفه . فى ثانية .
شدنا الى تجربة مثيرة .. ووقفنا جميعا — وبحـــارته —
نصـــفق ونهلل له .. فعلها وانصرف — وكأنه من الطبيعى ان
يغلب وينتصر .

قال بصوت هامس : التوقيت لديه مذهل — الربان زيـــاد —
انصرف فى لحظة الذروة ونحن نضج بالانفعال ..
ولكن أين كنت ..
— قلت لعادل عبد الوهاب من لحظة .. كنت على الجانب
الآخر من المشهد .. داخل « ذروة ناقصة » .
توقف الدكتور .. تراجع قليلا ليرانى افضـــل .. احـــكم
وضع نظارته هتف بارتيـــاح :
— لكنى اراك فى قمة تألقك ..

(كالأباجورة المطفأة .. أنت .. قيلت لى مرة والـــوقت غروب .. والقلب محمل بالشجن .. اليوم حقا احس الشموع تضاء من اجلى .. تتوهج مصابيحى كلها .. ويسطع النـــور داخلى) .

طلعت علينا أمل .. كالبدر ليلة تمامه .. كان من الواضح
انها استراحت فى قمرتها — بعد الغذاء — جاءت مســـتعدة —
وهى فى حالة من الوجد والاندماج مع دورها .

تقدمت وأحنت رأسها أمام الدكتور .. وعرفنا انها تستعيد
دورها .
قالت : الرئيس الموقر .. حضرات المستشارين ..
ليكن معلوما لهيئة المحكمة أن أهل القرية وقعوا التماســـا
مقدما الى رئيس الجمهورية .. وبذلك دخلوا طرفا فى النزاع

.. ووقعته معهم .. وامثل امام عدالتكم .. نيابة عن موكلى .
واقل القرية معا ..

رفعت راسها وتمشت قليلا ..

قال الدكتور زهران : امل بدات المرافعـــة .. وســـوف تستمر .. اين الاستاذ الابراهيمى .. كان حريصا على متابعة القضية .

اقبل بلال ثائرا والابراهيمى يحاول تهدئته .. وتوقف طارق غير بعيد عنا .. ما ان وقع بصر بلال على أمل حتى أخذ .. ونسى تماما سببغضبه .. ودخل منطقة نفوذ ســحر أمــل راضـــيا :

داعبه الدكتور : ما الذى يغضبك ؟

عاد بلال وتذكر : عادل هذا لا يحرص على مواعيد العمل .

الابراهيمى : غريب .. رغم انه من كبار الممثلين الا انــه يفعل دائما كل ما هو .. ضــد ..

تردد .. او لعله تمهل قليلا ثم قال : « ضد المسرح » .

صمتنا لحظة .. عادت أمل تنبهنا الى حـــالة اندماجهـــا القصوى .. افسح لها بلال المكان :

ــ قوالى أمل .. انت رائعة ..

أمل تتمثل موقفها : مهمتكم عسيرة يا سادة ..

ليس الامر حادث سطو أو سرقة ..
تحقيق فى معنى القصاص .. وتنفيذ القانون .
المسالة لا تتعلق بخلاف قانونى ..
المسالة تمثل حاجتنا جميعا الى العدل ..
بل هى قضية العدالة ذاتها ..
وتتعلق بأمن وســلام البشر ..

لم يتحرك واحد منا . لم نهمس .. ظللنا واجمين ننتظر بقية دفاعها ..

« موكلى .. يجوب البحار .. يقاوم الانكسار والغرق .. يصارع الوحوش والعاصفة وعندما يعود الى موطنه .. بيته فى قريته يجده منهوبا .. محطم النوافذ والابواب استباح اللصوص حرمته وعزته .

تطاول الاوغاد الى داخله « جوانبيته » .. وسياج أمنه وحدود حريته .. » .

صرنا مأخوذين بالقضية والاداء المتفوق للدفاع .

— لم تكن أمل فى لحظة عادية .. تبدو كآلهة الحكمة .. او « حتحور » ربه الفن لدى المصريين القدماء .

صوتها قيثارة من السماء .. تعزف عليها من اعماق قلبها .. (كدت ابكى .. اننا فى ساحة محكمة حقا .. وقضاة عدول .. وشهود . والقرية كلها حاضرة .. أفاقت القرية .. استيقظت روحها .. تريد تحقيق العدل .. يعود البلد آمنا وقفت مع ابنها .. رات فى الاعتداء عليه سفكا لدمائها .. فى الهجوم .. على بيته اخراج لأنفسهم من دريارهم .. لم تعد قريتنا ظالمة لنفسها ..) .

تفرست أمل فى وجوهنا .. توقفت امام الدكتور الجليل .. والابراهيمى كان كمن ترك موقعه فى الجبل .. وجاء الى ساحة المحكمة .

وبلال مندوب المشردين واللاجئين .. ثائر يقبض على بندقيته ويشهد سير المحاكمة :

— أمل تشخص بنظرها الى السماء ..

« موكلى يواجه فى البحر كل انواع الخطر .. لكنه خطر مخضب بالأمل .. يولد من رحم الزهو والانتصار .. حتى

الموت محتمل .. لكنها ميتة الشجعان .. من اجل هذا يغيب
عن بيته كثيرا .. يتركه أمانة لدينا .. وامنه دين علينا .
كما يعود محملا بالفوز .. رافعا صارينا وأعلامنا ..

لم أكن أدرى أنه انضم الينا .. جلس بجانبى .. يتابع
دفاعى .. قضيتى .. وخواطرى ..
همس : كم تقاضيت فى المرافعة ..
ـ معرفة البحار ..
اكملت أمل : « بيته .. مثل كل بيوت القرية .. بسيط
متواضع ..
ـ حقا له سحره الخاص وجاذبيته ـ مريح ومتسع ..
يجسد حاجة الانسان الى سكن ـ ليس متحفا للاثاث ..
او معرضا للتحف .. لا يضم جواهر ولا خرائط تشير الى
موقعه فوق منجم ذهب .. علام يبحث اللصوص .. وينقبون
.. ويعودون دائما .. اثمن ما لديه هو الكتب ..
قال : أحاول ضم مكتبتك الى .. لاعالج ذلك النقض فى
مسكنى ..
قصص البحارة المظام .. ودروس تاريخ الشعوب ..
واقوال اهل الفكر والأدب .. ما اظنها تهم اللصوص وما كانت
« الثقافة » يوما هواية لهم .
ولكن اى نوع من اللصوص هم ؟
مال على هامسا : كدت اسالك ؟
« كيف يسلمون المرة بعد الأخرى .. يدخلون ويخرجون
كأنهم فى نزهة شيقة ..
اشتكى موكلى لكل الهيئات والسلطات والقوى .. حذرهم
.. كتب لافتة كبيرة .. شاهدتها القرية كلها ـ انذار أخير ..
توجد قنبلة .

« لم يخيفهم التحذير او يعوقهم ..
— قوة اعتى من القنبلة .
انفجرت ياسادة بايديهم .. عندما جاءوا للمـــرة .. بعـــد
الثانية عشرة .. مات احدهم .. وفقد الآخر نور عينيه ..
قسمة عادلة — الامر الذى اجده مســـتهجنا .. ان يطلب
اللص تعويضا من ضحيته .. يقاضيه ويطلب حقـــا لديه —
وهو قاتله .
تنشد جوقة الشباب وبينهم منى : كان فى حالة دفاع عـــن
النفس .. بل دافع عن أمن بلدنا يهدد أمنك : ألا يعد قاتلا
.. لو المعتدى ذئب او نمر .. اكنا نتردد فى مصرعه ما الفرق
بين ذئب ووحش آدمى ؟
تسلل عادل وحاول ان يؤدى فقرة من « دفاعه عن اللص »
.. ولكن لم تكن فى حالة تسمح له شخصيا أو بوصفه محاميا .
يوقفه الدكتور عن المحاولة .. ما كان ليســـمح أن يكف
تدفق أمل .. وعندما يراها ترتجف ويتفصد من جبينها العرق .
— رغم أن هذا الاندماج الكامــــل — مخالف لنظريته —
يريحها .. ويخبط المنضدة بيده — يتخذ سمت القاضى :
— القانون وضع ليحترم .. والا فيم كانت الجهود المبذولة
على طول الطريق من اجل ايجاد تشريعات عادلة ..
ليس من حق احد ان ينفذ القانون — بيده — او على طريقته
الشرطة عملها حفظ النظام — وحماية المواطنين ..
السرقة جريمـــة ..
ولكن ليس من حق اى انسان أن يقتل .. كعقاب عـــلى
جريمة أخرى .. وأن يخطط ويعد لتنفيذ حكم ارتضاه هو .
حدثت ضجة فى المكان .. واصوات .. ومقاطعة .. اضطر

الدكتور فعلا للدق على المائدة — لحفظ النظام — كان تدفق البحارة والشهود والممثلين رائعا ..

امل تصرخ : فى اى عصر نعيش نحن ؟

هؤلاء اللصوص كأنهم « عدو داخلى » يجب القضاء عليه اولا لنقيم كيانا اجتماعيا عادلا ..

« بحارنا » .. لم يقصد قتلهم .. هم الذين اســـتخفوا واستهانوا بكل القوانين والقيم .

— ما عادت القوانين لتهمهم .. او ترجعهم عن غيهم .. انذرهم :

فقتلوا انفسهم .. واغمضوا عيونهم — الى الابد — بقدر ما اساءوا الى القرية كلها كـــان يريدكم ان تعرفـــوهم .. فتحاكموهم .

من هم ؟ ما غيهم ؟

اذا وقف القانون عاجزا . فلنغيره .. نجعله ســيدا .. نطبق قوانين الحرب — ان لزم .

فهى معركة .. لا تقل عن اية معركة حربية من أجل أمننا الداخلى . تنشد جوقة الشباب والبحارة ومنى .. معهم انا .. اغمض عينى واهتف بينهم :

« ايعود بعد كل سفرة ليجد بيتــه محطمـــا .. لا ســـقف ولا جدران ولا حصانة او كرامة لنا ..

سنظل واقفين .. فى العراء هكذا ! .. نرتعد معه فى الظلام .. مشردين امام ديارنا .. معنا اطفالنا .. لتـــدركوا مـــدى

حاجتنا الى العدل .. فتقضوا لنا ويعود هذا البلد آمنا .. !!
هذه ليلة الاحلام ..
اخذنا نتحدث وأمل عن المسرحية .. وكيف يتلقاها عمـــال المناجم .. والمعزولون « الشجعان » بين الماء والسماء .. ورد الفعل لدى البحارة ..
— سيقفون مع البحار العجوز يضع كل منهم نفسه مكانه .

(لم أكن أدرى وأنا أكتبها وأجعل بطلها بحارا . كى أوجـــد سببا لتغيبه عن بيته .. وتفرس اللصوص فيه .. لم أكن أحلم يومها أن تعرض على جمهور من البحارة .. فوق مركب يجوب بحـــر الظلمـــــات) .

عادت أمل تقول : وبذلك نضمن العمال والبحارة وغالبا الفلاحين معنا ..
ترى اين تقف منا المدينة ؟ .
واسرعت بالجواب قبل أن اجيب عليها :
— بالطبع توجد اعداد كبيرة تدافع عن مصـــالحها وتؤيد « عادل عبد الوهاب » وتدعى أنها تحرص على القـــانون .. ومن حـــق اللص الحصول على تعويض ..

قال بلال : سيصاب عادل بالفعل بعقدة اضطهاد .. لكنى حريص على عرض وجهتى النظر ..

فأحد جوانب الموضوع « ربما » انه خلاف قانونى .
— لا تخشى على عادل من شىء .. فهو يضطهدنا جميعـــا .
— لكن دكتورنا يعلمنا « انه نتيجة الظروف المحيطـــة » .
وعلينا الا ننبذه تماما .. ونتعامل مع الجزء « الخير » داخله
قال الابراهيمى — دكتورنا الغالى « مســيح عصرى » ..
ولكن نحن الخطائين لا نحتمل كل هذه الشرور .

سبقتنى أمل الى النوم .. تنام باسمة .. بم تحلم نجمتنـــا السـاطعة .. وتخيلتها على المسرح .. بحضورها الفائق .. ورأسها الشامخ٠٠ وذوب حبات قلبها٠٠ هى من تنطبق عليه نظرية « ستبانســلافسكى » انسانة جيدة لذا فهى ممثلـة جيدة .. « ايزادورا عصرها » والتى قال عنها انها تجسيد حى لنظريته على المسرح ٠٠ حركتها تتبع ذلك النـور الداخلى والموسيقى العذبة الكامنة فى النفس .

تدافع عن موكلها البحار ٠٠ وتدفع عن قريتها من يستبيحون الخصوصيات والامان الداخلى ٠

(احبها قريتى آمنة مطمئنة تفعل ما تقول دائما ٠٠)

(قريتنا فى المسرحية لم تعد غالمــة ٠٠ افاقت تيقظت روحها ٠٠ وقفت صفا كالبنيان المرصوص ترفض أن يعود ليجد بيته منهوبا ٠٠ ومنافذ مسكنه محطمة)

تجلت أمل فى دفاعها تضمنه قصة « فرتونة السوداء » تستغيث بالخليفة عمر بن عبد العزيز ـ أيام كانت الخـلافة تعنى حبا وحنانا واهتماما بالناس ٠

وجسدت المشهد على المسرح ـ أمام الجمهور والمحكمة بطريقة تداعى المعانى والعودة الى الوراء بالذاكرة ٠

وكنوعمن « الحبكة الجانبية » المدعمة للفكرة الاساسية والمقوية لها .. ولتظهر كيف أننا العرب حققنا الاسلام كدين ونظرية للحكم وأسلوب حياة ٠٠

وحلقنا فى آفاق من العدالة لم يعرفها العالم وحتى الآن ٠٠ وباعدت الأيام بيننا وبينها ٠٠ حائط بيت ليس مرتفعا بما

يكفى للحماية ٠٠ مشكلة تبدو خاصة وتافهة ٠٠ لكنهـــا فرضتها على ولى الامر واستغاثت به مصرية فقيرة ســوداء ٠٠ مثلى تسكن الجيزة ويعتلى اللصوص بيتها لا يهم مـاذا يسرقون دجاجا أو بيضا أو صحائف مدونة ٠

وصل مكتوبها فى عاصمة ملكة ــ فى ربوع الشام ــ فأمر واليه فى مصر أن يذهب على الفور ــ وبنفسه ــ يحصن لنـا بيتها ويعلى حائطها ٠

هى قضية حياة ٠٠ وأمن مواطنة فقيــرة ٠٠ تعنى أمن أمتها .. وهى المســئولية المتصلة بالله وتعنى القيــام بحق الناس ٠

انهدت قواى من التفكير ٠٠ والابحار بين صـور الماضى والحاضر ولا أدرى متى استغرقت فى النوم ٠٠

لكنى رأيت فيم يرى النائم اننا فى بحر لجى يغشاه الموج ٠ وان السفينة لا تستطيع الرسو على الرصيف ٠ ٠نظرا لحلول الظلام وكثرة الصخور ٠٠ وسيوفها المشروعة حولها ٠٠ وقفت فى عرض البحر ٠ وأنزل الربان لنا قوارب صغيرة ٠٠ تقل الفرقة ومعداتها ٠٠ فى بحر الظلمات لا نكاد نتبين بعضا ٠٠أمل تبدو فى المقدمة يبرق خافتا ثوبها الابيض ٠٠والدكتور زهران مع الفرقة الموسيقية ٠٠ أحسست به يحتضن كمانا ضخما ٠٠

ثم اضاء الكون نور كالحريق ٠ فزعنا .. اختيار صـــعب أمامنا نموت بالغرق أو الحريق ٠٠

جنح زورق الدكتور نحو النور ٠٠ أخذت الموسيقى تعزف .. والدرافيل تتبعه قافزة .. راقصة ..

وفجأةانقلبزورق الموسيقى ٠٠ وظل الكمان يصدر أنينا خافتا من تحت الماء حاولت اندفع الى قلب الماء ٠ ٠انقـــذ

أستاذى ومعلمى .. لكن دفعة قوية من يد الربـــان القت بى بعيدا الى سطح جزيرة ..

وقعت على الارض .. وبدأت برودة اليقظة تســرى فى أنحائى .. ظللت لحظات مكثفة حتى أدركت حقيقة الأمر .. وأن حلما مريعا ما رأيت .. تلفت الى أمل . ماتزال نائمة فى هدوء الملائكة .. تحلم هى الاخرى .. لكن الوان البهجة تغلف الرؤية الممتدة حولها .

هدأت نفسى ..

تنبهت .. قالت : ما بالك تنظرين الى هكذا .

– استشف حلما يتوهج بابتسامتك ..

– لابد أن حكما فى القضية – فى المسرحية – سـيصدر لصالحى ..

– نتيجة امتحان ما ننتظر ..

– وجاء الامتحان فى عرض البحر .

(وتذكرت أحمد بن ماجد الملاح العربى القديم المتفوق – وهو يقول بلسان « المعلم » . « اعلموا أنه قد يجرى عـلى المسافرين أهوال ونحن معشر الربابنة علينا العهـــود والمواثيق أن لا نعرض سفينة للعطب ..

واعلموا انا نحن ربابنة الســفن لا نطلعها الا وآجالنــا وأعمارنا معنا فيها فنعيش ونموت قليلا منها .. ونمــوت بعطبها .. » .

ونحن أيضا معشر الفنانين .. نعرض أعمالنا .. ونموت بعطبها ..

وحتى نجتاز الامتحان النهائى .. وتصفق الجماهير لنا نعيش فى رهبة من الامتحان ونموت كثيرا حتى ننتصر ..) .

سمعنا طرقات ثلاث على الجدار يفصل بيننا وقمرة بلال وعادل وعبد الوهاب ·

ـ بلال يتعجل خروجنا ·

ربما من عادل يستغيث ·

ـ بلال يقول : أفضل من الزنزانة على أية حال ·

ـ صبور بلال بقدر ما هو ثائر وقلق دائما ··

ـ علمتهم المأساة الصبر والاحتمال ·

صادفت طارق يتمشى فى الممر ـ كان من الواضح انه بانتظارى ـ كان أول ما فعلت ـ هو السؤال عن الدكتور زهران ·· كيف وأين هو ؟

تعجبت أمل ـ لم تشأ تسأل عن اللهفة لم ··

قال انه والاستاذ الابراهيمى على السطح منذ وقت مبكر ·

(نعود مرة أخرى للهواء الصبى ·· يعاملنى « الصبى » كما لو اننى ربان ·· ترى ماهو شعوره · يعتلى مركبه واهم رجل فيها هو ··)

يبدو انه حفظ تعاليم أسد البحر ·· ابن ماجد ·· المعلم « اذ أضفى قدسية على الربان الذى تتوقف عليه سلامة السفينة · ·والمهمة ·· والارواح والأموال ·· مسئولية الحاكم تماما ··

الخروج الى البحر كل رحلة كاداء الفريضة . موليا وجهه الى الله .. وذلك يتطلب الطهارة والنقاء ..

« فأنت فى السفينة ضيف من ضيوف الخالق سبحانه وتعالى فلا تغفل عن ذكره .. » . عمل الربان لا يحتمل الخطأ ـ وخطأ الربان لا يغتفر ـ

.. ينبغى على الربان التفريق بين الصبر والتوانى ..

الفرق بين العجلة والحركة .. يكون عالى الهمة .. محبوبا
.. عادلا ..
ــ فى الحكم .. فى البحر .. والقضاء لابد من العدل ــ
السفينة مملكة يسيرها الربان بالحب والعدل .

الظلم يعطبها .. ونموت جميعا بعطبها ..
لا يمكن ان تكسر قلب بحار ابدا .. تهينه أو تحقره ..
على الشاطىء نلعق جميعا منقوع الاذلال ــ واذا كنا نخفى كبرياءنا .. ونستخفى بالعزة المستمدة من وعـــــد الله لنا .. فالصمت هو التعويذة وعجلة النجاة لنا ..
رايت الدكتور يجلس فى مواجهتى .. يغمره النـــــور والابتسام ــ كما تبدى من قلب الظلام ــ فى زورق الموسيقى داخل الحلم ــ
مبتسما ــ رغم انه من الواضح قد ذكر كلمة « نضال » امام الاخ الابراهيمى مرة اخرى وامضيا الليلة ساهرين ..
نظر الابراهيمى ناحيتى وقال أدركونا .. اغـــيثونا ..
ــ ما الخبـــــر .

ــ ليلة اخرى .. لم نتم .. وما اظننى سأعرف النوم ثانية .. حتى حين اغادركم واعود الى النوم ثانية .. حتى حين اغادركم واعود الى بلدى .. سأظل قلقا .. مؤرقا ..
اجلسى يا اخت نور وسأروى لك آخر ما توصلنا له عن نظريتك ــ المستمدة من كلام الله ــ اعرف ذلك جيدا ..
عن الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة ..

يقول الدكتور زهران .. والأمم ــ كما الأفراد ــ تحـــل بها اللعنة اذا عتت وفسقت عن أمر ربها .. خرجت عن شريعة الحق والعدل بين ابنائها .. تكتب عليها الذلـــــة والمسكنة .. « **وللكافرين عذاب مهين** » .

ويهز الدكتور راسه بخشوع فباءوا بغضب على غضب ».

— لابد لاحظت يا نور .. من دراسة التاريخ .. وعلم احوال البشر .. ما من امة تعالت وتمادت فى غيها واخذت تفسد فى الارض حتى انهارت حضارتها وتهدمت .. وتفرق بها الشمل وتمزقت اوصالها وادركها الخزى والهوان ..

هب الابراهيمى .. ضربت عليها اللعنة .. وغشيهـا الاحتلال او الطاعون ..

وبالقياس والتطابق سيدتى .. وعودة التاريخ وعبرة الاولين ..

« ستأخذنا الصيحة بذنوبنا » .

هب واقفا : ظلمنا انفسنا .. سفكنا دمنا .. اخرجنـا انفسنا من ديارنا كما تقولين يا اخت نور ..

ستحل بنا اللعنة .. المأساة اننا نعرف ذلك جيدا ..

اجلس يا سيد ابراهيمى ولا تصرخ هكذا .. دعنا نتحدث عن القيمة الحقيقية للمسرحية — هكذا قال الدكتور عندمـا راى عادل يمر بنا —

قال الدكتور « نبوءة ومسرحية » .

هكذا فعل « تشيكوف » فى « شقيقاته الثلاث » وصـل بمسرحيته الى حد النبوءة .. الكل يندب حظه .. « لمـاذا ونحن لم نكن نبدا حياتنا حتى يخبو فينا النور .. » لكن الحلم والتساؤل تعكس رغبة دفينة فى التغيير .. التحـرر من القيود والعجز .. وعليهم بالعمل ففيه خلاص ارواحهم .. عندما هبت رياح التغيير فى جسد المجتمع كله صدقت كلمته ..

وها نحن والمسرح يعيد نفسه .. امام مسرحية ونبوءة..

صمت الجميع فجاة وعاد الدكتور يقول :

ـ والآن نعود مرة أخرى الى المسرحية ..
فهذه ليلتهـــا ..
قيمتها فى نظرى .. لمسة التفاؤل والأمل فى النهاية ..
يكفى أن القرية افاقت .. ووقفت بجانب الحق ..
مع مواطن مظلوم .. يطالبه « قاتله » بتعويض تنهـــد
الدكتور زهران .. وبدى كمن عاد الى رصيد الذكريات :

تصوروا عندما جئت الى المسرح ، وجدت النص مركونا يعلوه التراب .. وتعللوا بأسباب واهية .. منها عدم وجود مسارح « خالية » .. قلت يا ناس تصرفوا .. استاجروا زقاقا أو ناصية .. جراجا ، اشتروا مقاعد من الســـوق السوداء ..

ضحك ـ وتصورى يا نور استاذك يشجع الســـوق السوداء .. وصل طارق .. وقف غير بعيد .. نهضـــت لأعرف ما يريد .. قال بسرعة :

ـ جئت لأقول لك اننا فى كل مرة .. وكل رحلة فى حدود هذه المنطقة التى نعبرها .. يظهر لنا أعرابى عجـــوز ـ ينشق عنه البحر فجأة ومعه « استاكوزا » .. يـــرفض التعامل مع البحارة أو الضباط .. ويقول « أريد : الطويل .. نادوا الكبير » ـ يقصد الربان زياد .. ويقدم اليـــه الصـــيد ..

والقبطان ايضا يحبه .. وينتظر ظهوره المفاجىء ويقلق اذا غاب أو تأخر .. حتى أصبحت المسالة موعـــدا .. ولقاء ..

(شغلتنى حكاية الصياد العجوز .. يتعلق هـــو ايضا بالربان .. ما تلك الخيوط الحريرية التى تربط بين مصير

وعواطف البشر .. يدعوه « الكبير » .. هو كبير حقا .. لانه قادر على الود .. والحب ..)

صمت طارق فترة .. ثم قال بتردد وتهيب ..

— وجئت ايضا لاخبرك ان القائد ربما يعد لك مفاجأة ..

(أخذتني المفاجأة) : ما هي ؟ وكيف عرفت ..

— لست أدرى ولكنه مجرد احساس .

شوشة كان يجلس كالقط — غير بعيد .. متحفزا .. قال طارق وهو ينصرف : لابد ان شوشة لديه اخبار (هـل لديهم حس متفوق كلهم هنا .. وهل « شم » هو الآخـــر رائحة مفاجأة ؟ .

ابتسم شوشة وجاء على مهل — يقلد مشية المهرج .. ويغزونا بمخزون الحكايات لديه والقصص والتعليق الذكى..

— عارفة يا ست هانم الرجل العجوز — حكى لك طارق عنه — عايش فى جزيرة مهجورة .. جنبنا .. وعنده بنات..

استمر يستثمر دهشتى : اى وعهد الله .. ولما توصل الواحدة سن الجواز يرفع علم فوق عشته ..

(هل يمكن ان تكون القصة كلها من نسج الخيال .. واى خيال مشوق وخلاق هكذا ..) .

نظرت فلم اجد شوشة امامى .. فر كقط .. عندما شم خطوة القبطان ..

— ما الحكاية بالضبط .. لا احد يريد صحبتنا فى رحلـة الى جزيرة مهجورة .. الدكتور زهران ارهقته مجاورات الابراهيمى وبلال كان يود للغاية .. غير انه كتم رغبتـــه ارضاء لأمل ..

— أراك متأكدا من صحبتى .. انا !

— وهل تترددين أمام « لحظة اكتشاف » .

ـ وهل حكاية الصياد العجوز .. يرفع اعلاما للزواج نوق كوخه صحيحة ؟
ـ نسمعها كنوع من الاسطورة ..
عدنا الى الدكتور والابراهيمى ..

قال الابراهيمي مندفعا : معني ذلك انك لم تذهب الى هناك من قبل يا قبطان ؟
ولا احـــد ذهب ..

هى شبه جزيرة .. تدعى راس بناس .. ويثير الانجليز فى خرائطهم الدقيقة على انها « مقبرة » فقط دون اية علامات او قياس لعمق المياه وارتفاع الشعب المرجانية ولا طريقة الدخول والرسو ..
قلنا نجرب حظنا ونكتشف عالما جديدا ..

(هبى يا رياح المغامرة .. اقبلى .. تجمعى فـــوق راسى وادفعينى بجنون الى اكتشاف ارض جديدة .. وكشف قوى داخلى غير مستعملة) .

قلق الابراهيمى .. اوضحت قلقه نبرات صوته الرفيعة الزاعقة .. فى ذلك مخاطرة يا سيدى ..
ـ والحياة تطيب مع المخاطرة ..
ـ وهل تذهب السيدة نور معك ؟
وتلك هى المفاجأة التى أعددتها لها ..
قال الدكتور زهران بهدوء : كيف قاوم بلال الاغراء ؟

قلت : بلال يريد أرضه هو لا تثيره كل الأرض التى لـم تكتشف بعد ـ ولا الكواكب والفضاء المترامى حولنا ..
عاد الابراهيمى يقول : سآتى معكم ..
ضحك الدكتور : عدت تحن للمخاطرة .

تنهد الابراهيمى بحرقة : حرك اشواقنا بى الربان « وهل الحياة تطيب الا بالمخاطرة » .

(ويبدو حقا أن اشواقنا بعيدة قد تاججت وهبت عليها رياح الاوراس العنيفة الدافعة .. نجتاز فى البحر امتحانا للشجاعة — وحتى لا تاخذنا بعد ذلك ((مفاجاة))) .

لننشر شراع « كولومبس » او خطى احمد بن ماجد على الماء .. كاننا بشر اوائل نكتشف ارضا جديدة .. نركب الصعب ونشق صدر المجهول من السفينة الى اللنش .. ولم يعد باستطاعته الاقتراب اكثر .. المياه ضحلة بالنسبة له والشعاب مبثوثة ودامية ..

انزلنا زورقا من « الفيبر » .. دائرى وقاعدته كانها من الزجاج لا يسع غير اثنين .. قسمة عادلة ..
الابراهيمى يشتبك فى حوار مع الطبيب ..

طارق يجهز لنا الزورق ويكتم مخاوفه .. وكنت لا ادرى ماذا تعد لنا المغامرة .. لكنى مدفوعة بقوى غريبة .. عنيفة وقادرة **(اريد لاضع نفسى فى امتحان شجاعة ومواجهة .. كى أقول يوما مثل فلاحنا الفصيح .. واصبح باعلى صوتى: العدل جميل .. العدل خالد .. العدل باق .. لذلك كن عادلا .. يضىء لك وجهك وينزل معك الى مقبرتك .. لاتدع سلة من الفاكهة تفسد قضاتك ..) .**
حقا اعتبر نفسى مكتشفة — فى اللغة —

اجدف بين شواطئها البعيدة .. وانزع اللؤلؤ بين محاراتها .. وانفض الطين والاعشاب الضارة من سطح فيروزة مشعة .. موحية وبرعت فى صقلها وحسن الاداء بها .. وبوسعى جعلها تصدح باقصى مكنونات نغمها ..

ولكن « علومنا اللفظية » ومسوداتنا الخطية يمكن فيهـــا المراجعة .. أما العمل فى البحر فلا يحتمل الخطأ .. وحسب وصايا المعلم :

« خطأالربان لا يغتفر » ..

وها انا اجدف فى الماء .. مثله اخوض بحذاء من المطاط .. وبعد جهد الى الشاطىء المهجور نصل ..

(اذا قدر لنا ان نعود ساقيم الدنيا واقعدهـــا أكتب ان المرأة تصلح ربانا لأعالى البحار ـ ولابـد من اتاحة فـرص التعلم لها ..) .

هو يسبقنى بخطوات .. ومع ذلك اشعر به يتاملنى .. ترى ماذا يخبأ لنا؟

(ربما تكون هذه البقعة ارضى الموعودة والتى يجب ان أعود اليها ويكون اللقاء والمنتهى تضمك الى ثراها وصخورها وتطوى صفحة حياتك بين احضانها يا نور) .

هدوء غريب على الجزيرة .. كأن الضجة التى عشـــت عمرك بينها .

غادرتك فجاة .. واصبت بنوع مثير من الصــــمم .. ورشوشة خافتة تدور فى سمعك ــ وذاكرتك ــ

اخذنا طريقنا الى البيت الوحيد القائم فى الجزيرة .. فوته اعلام حقا ــ ولكنها خرق بالية ــ

عبرتنا عظام متناثرة .. قد تكون لحيوانات .. وقد تكون عظاما بشرية ــ ربما لحمقى مغامرين مثلنا ــ

وقفنا امام باب موصد فى وجوهنا ــ صفقنا .. نادينا .. ما من اجابة .

قال : النساء فى الداخل ــ وذهب الرجال الى الصيد .. لا يصح لرجل غريب طرق بابهم .

سمعنا عن اعرابى عاد فوجد غريبا يطرق بابه .. لم يمهله يسأله .. انما صرعه على الفور ببندقيته .

(ومن يدرى ربما فوهة بندقية مصوبة الآن لرءوسنا) .

قال : ابتعد قليلا .. وانت تطرقين وتنادين بأعلى صوتك ثم تحاولين دفع الباب — ربما النسوة تخشى فتحه لنا ..

(باب أوصدته على النساء .. ايد تطاع بما تشــــاء — لانها ايدى رجال .. من قصيدة لشاعر مظلوم مثلنا .. مات منفيا .. ويبدو ان كل ما سنحققه من مساواة هى الموت مثله .. مغتربين بين السماء والماء ..) .

وجها لوجه مع الامتحان .

الامتحان وارادة الشجاعة ..

(ربما تكون النهاية امام منطق معوج .. وقضية منطقية تخلط بين طرفى المعادلة .. يبتعد وهو الرجل ومعه سلاح — رأيت يده على مسدسه — واتقدم انا .. سيدة عزلاء واقتحم المكان .. واشن حرب المفاجاة .. — ولأن النساء قابعات مقهورات فى الداخل — ..) .

(هبى يا رياح الاقدام عبر سيناء المقدسة .. مثل جان دارك اسمع اصواتا مباركة تهيب بى ان احرر بنى جنسى وانضم لجند الخلاص ..) .

لحظة يتوقف فيها الزمن ولا يمكنك ايقاف اندفاعها ..

وكما يحدث فى افلام السينما اندفعت مقتحمة المكان ..

ووقفت الهث وارتعد وانظر ماذا ارى ..

لا بيت .. لا سقف .. لا نساء مذعورة ولا بنات فى سن الزواج .. انما خــــلاء .

خــلاء .. ومقبرة .

تناثرت الاســـــطورة وحلقات الرعب تحت أقدامنا ٠٠
ووقفنا نضحك
اوهام ومخاوف صنعناها بأنفسنا ورسمنا شـــــخوص
فزعنا ٠٠

« الشيخ احمد بناس » من يكون ٠٠ وأى ريح القت به الى
هنا ٠٠ بحار شهيد ٠٠ عاشق متصوف ٠٠ صـــــياد تحطم
قاربه ٠

هارب من زواج أو انتماء ٠٠
« لديه شجاعة الاعتزال » ٠٠

(على كل لم يضع جهدنا سدى ٠٠ اجتزنا الامتحان ٠٠
ثبتنا أمام الخطر ٠٠ واجهنا الخطـــورة واقفين ٠٠ عبرنا
لحظة يتحدد فيها معنى الحياة ٠٠ ومعنى ان نعيشـــها بحب
وقوة وبلا وجل) ٠

ـ ٦ ـ

« وكان الموت حاضرا »

هكذا وجدت نفسى أجيب عندما سألنى الدكتور زهران عن
الرحلة ٠٠ بهت بلال ٠٠ قلت أدارى « كبوتى » اللفظية ٠٠
ـ اكتشفنا الخلخل ومقبرة

ابتسم الدكتور لاجابتى : وما الخلخل ياترى
أجاب الابراهيمى عنى : شىء يقشعر له البدن ٠
عندما تم غزو الجزيرة ٠٠ واكتشافها ٠٠
لوح لنا الربان للقدوم ٠٠

لفتت نظرى الاخت نور للخلخل فارتعدت ٠٠
أنا الذى خضت معارك التحرير ٠٠ ومجاهدة النفس ٠٠
فزعت ورجعت الى الوراء ٠٠
– كفى تشويقا وقولوا ما هو ؟

أكملت – أشار اليهم الربان بالنزول وقال نشرب الشاى فى رحاب ولى الله ٠٠
وقفت مزهوة بانتصارى ٠٠ أستند على الباب ٠٠ وأتأمل تفاصيل المكان بعد أن زال عنا الفزع ٠٠

الشيخ أحمد بناس ٠٠ وفوق الضريح أحجبة ونذور ٠٠
واستغاثات داخل أوراق مطوية ٠٠ داخلها نقود ٠٠ وخصل شعر النساء ٠٠ وقمصـــان داخلية ٠٠ ومناديل رأس ملنة ٠٠ أناس كثيرون يأتون هنا ويتركون شواهد عذابهم ٠٠

وأناس يحجون ويتركون فى زوايا المكان بقايا وقود ٠٠
وعلب فيها سكر وشاى كرم وضيافة من الشيخ النبيـل ٠٠
ومدد لمن يلقى بهم البحر الى هنا ٠٠
قال الدكتور : رقدة جميلة فوق سطح جزيرة ٠٠
ولكن من أين جاء الرجـل ٠٠ كيف اختـــار نومته ٠٠
ما قصته ومن بنى له الضريح ، أم تراه أقامه لنفسه وأعده لرقدته ونساء تأتى تضع أمانيها واشواقها ٠٠

ولكن لم تذكروا لنا الى الآن ما الخلاخل هذه ؟ ٠٠
ضحكنا جميعا ٠٠ وحسبت الاستاذ تعمد خطأ نطقها حتى يسرى عنا ٠
قلت : استندت الى الجدار وبى زهو وفرح ٠٠
وفجأة وجدتنى يتمايل بى المكان ويدور ٠٠
وأكاد أقع ٠٠ أغمضت وفتحت عينى بعدها ٠٠ والدوخة

لا تزال ·· المكـــان كله يرقص بى ·· ويتنفس حركة لزجة ميتة · ·حركة بطيئة كما يقول الاستاذ الابراهيمى ··
يقشعر لها البدن ·· وكدت أفر هاربة ··
تماسكت فى اللحظة الاخيرة وابتلعت صرختى ·· أفسد على نفسى لحظة بطولة ·· أجهضـــها فى الحال ·· وأدعه يشهد جزعى وتخوفى ·· ناديت عليه وكأنى لا أهتم بشىء ·· وأنظر ماذا ترى ··

وقف يتأمل المكان لحظة ·· ثم انفجر ضاحكا (**لديه القدرة على الضحك من أعماق الفؤاد ·· كأن لم يعرف الأسى طريقه الى قلبه ابدا ··**)
ـ الخلخل ··
نوع من القواقع الصغيرة يقذفها البحر وتتراكم ويزدحم بها المكان ـ يبدو أنها تنفست جميعا فى وقت واحد وأخذت تفتح صدفاتها عندما احست بنا ·
ـ ياله من مشهد ·
ـ وانظر لنور يا دكتور تقول ـ حركة ميتة ـ
قال الدكتور متأملا : يخوض الناس بحارا ·· ويعبرون أهوالا ليتبركوا بولى صالح مات مغتربا أو مشردا ·
ـ فى الصحراء والمدن البعيدة والقرى يتبـــــرك الناس بالأولياء ··

عاد صوت الدكتور حاسما : حتى الظالمين يقولون انهم يحمون الارض ·· ولا ينالهم الضر ببركة وجودهم · يفعلون الظلم ويفسدون فى الارض ·· ويعتمدون على الاوليـــــاء الصالحين والاقطاب الواصلين والاضرحة ·
حقا لا تخلو أمة فى كل زمن ·· من قلة صالحين مخلصين ·· ولكن وجود قليل من المصلحين الراعين لحدود اللــه ··

لا يمنع عن الامة العقاب الالهى اذا تفشى فيها الفســـــاد والابتعاد عن طريق الحق والعدل ٠
شحب بلال وقال بصوت يقطر أسى :
ـ والمصيبة أننا ننتظر وقوع البلاء ٠٠ ولا نملك له دفعا ٠٠٠ وترتجف عظامنا ٠
وردد الابراهيمى بصوت تقريرى :
لن تنصلح أحوالنا حتى نعود الى الهدى ٠
اقترب عادل ٠٠ قال ممتعضا :
ما هذى المناقشات الفقهية تمضون الوقت بين معضلاتها ٠
ردد الابراهيمى آية كريمة بصوت خافت واضح :
(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها) ٠
قال عادل : اعطوا ما لقيصر ٠٠ لقيصر ٠٠ وما لله ٠٠ للـــه ٠
كأنه وخز الابراهيمى اذ هب زاعقا :
ـ أخ عادل ما يصح الاستفزاز ٠٠ ولا هو مجال للتهكم والتهريج وبعد ما قلت عن الربان ٠٠ يحسن بك تجنبنا ٠٠ وحتى تنتهى هذه السفرة على خير ٠
لم نفهمعن أى شىء يتحـــدث الابراهيمى ٠٠ واستغربنا ثورته ٠٠ ولكن أدركنا ثمة شيئا مهولا قيل أو وقع ٠
شحب وجه عادل وارتعد كله :
ـ وأنت أيضا ما كان يجب عليك أن تنقل للربان مقـــولة عـــادية ٠
قيلت فى لحظة ضيق أو قلق ٠
ازداد هياج الابراهيمى ٠٠ كاد ينقض على عادل ٠
ـ اسمع خى ٠٠ الرجل من يحكم لسانه قبل أن ينطق ٠٠ ولا يتدخل فيما لا يعنيه وأنا رجل ملتزم ٠٠ ماكنت لأسمح

يوما أن يقال شيئا من وراء ظهر ـ قيادة صالحة ـ هذا عار وخيانة ٠٠

قام الدكتور يحاول تهدئة الابراهيمى ٠ ٠وأشار لعادل بطريقة حاسمة أن يذهب ٠

سأله بلال : لم أرك ثائرا هكذا ٠٠ ماذا فعل عادل معك ؟

أجاب الابراهيمى وصوته يتهدج :

ـ أنا رجل واضح وصريح ٠٠ ثم ان ربان زياد أصبح صديقا ٠

كنت فى طريقى لأرتدى سترى قبل النزول الى «رأس بناس» ٠٠ فاستوقفنى ٠

ـ هذه مركب حكومة ٠٠ لم يبدد الربان وقتنا ويحبسنا فوقها وينزل الى شاطىء مهجور لا هو فنار ولا ميناء ٠٠

ما يظن نفسه ٠٠ أوناسيس على ظهر يخته الخاص فى نزهة مع الاصدقاء تبادلنا نظرات واجمة ٠

تساءل دهشا أما ترون فى ذلك خسة ونذالة ؟

قال بلال بسخرية : ربما كان يريد من القائد مثلا أن يعلن مهمة حقيقية يقوم بها ـ حتى يرضى عنه ـ

قلت بغضب : ولكن ما نوع التفكير الذى يدور فى عقله ؟

يتأثر بلال : من بعد اذنك يا دكتور ٠٠ سأضربه يوما ٠

ـ وتخسر معلمك ؟

الابراهيمى يهدأ ويعتذر : ثرت فى حضرتك يا دكتور وما كان يجب أن أفعل ٠

عاد الهدوء لمجلسنا والابتسام ٠ ٠ولو أن بعض البحارة مروا بنا لقالوا عنا مجانين نتعارك ونصفو ٠٠ تعلوا أصواتنا ٠ ٠وتحمى الاحاديث ثم ابتسامات وضحك ٠٠ وجلسة سمر ٠

ما بالنا لا نقوى طويلا على ابتسام أو ضحك ·· ما عدنا نضحك ـ كأمة ـ نمشى وظهورنا محدوبة صامتين ·· لانجرؤ على تبادل المرح ·· فيما مضى كنا نعرف بالابتسام والاقبال على الحياة · ·مثل النيل مبتهج · ·طبيعتنا سهلة منبسطة مثل وادينا يزهو خضرته ·

هل رأيت وجه تمثال للفراعنة قبيحا مكفهرا أو مكتئبا · ولكن غشينا العبوس والانقباض ·· صرنا اذا اضطررنا للضحك ـ ولو مجاملين ـ نقول خير ·· اللهم اجعله خيرا !
الدكتور يحاول تخفيف حدة الجو ·· يقول وأين القبطان ؟
أشعر بشوق اليه · ·يأتى كبرق خاطف وينصـــــرف ·· أصدقكم القول افتقده أحيانا ·· وأود لو يأتى ويجلس معنا ـ لو كان لديه وقت ـ

يرد الابراهيمى : عالى الهمة هذا الرجـــل ·· يثير فيك الحماس واليقظة والروح العسكرى الأصيل ··
سمعنا مكبر الصوت يبث رده علينا أو مشاركته لنا ··

« قبطان الباخرة يحييكم ·· ونحن نقترب الآن من ساحل برنيس على امتداد خط العرض لأسوان تقريبا ··
وعلى كل من يريد الاستمتاع بالسباحة الاستعداد للنزول ·· على ان تكون العودة قبل الغروب ·· »
قال بلال : يبدو أن الربان يداعب عادل عبد الوهـــــاب بطريقته ··

نهض الدكتور زهران بنشاط شاب صغير :
ـ نقبل والله دعوة « الربان الهمام » ونتمتع بالسباحة هيا يا نور · ·مرت على أجيال لم أمارس فيها تلك الرياضـــة الرائعة · ·نسبح وننسى كل الهموم ··

« لا تضيعى الوقت يا نور . الى السباحة اللـذيذة ..
نجدد فيها خلايانا ونستعيد نشاطنا .
بلال انزل فادعو امـــل ..
ما اظنها ترفض امام الاغراء ..
الابراهيمى : كيما تتجلى الليلة وتحلق بنا ..

الدكتور : فى البحر لا يمكن تذكر الهموم .. يغدو الانسان
خفيفا .. السباحة هى توأم الفرحة والمرح ما الذى يقعدك
يا نور ..

وجدتنى اتشبث بالاعتذار :

ـ مجهدة تماما يا دكتور .. رأس بناس ادارت لى رأسى
قال الدكتور : اذن أنزل فى أول لنش ـ كى لا اضيع وقتا
سأعود بسرعة ان شاء الله .. وأجدك مرحة متألقة ..
(تأثرت بشدة . يظلنى ضفت بتعليق عادل السخيف ..
ظل يرمقنى بحنان الصداقة العميقة هبة الله لنا .. كثيرة
نعم الله لا نكاد نحصيها ونئن تحت وطأة الألم ..
وجدتنى أريد أن أبكى .. لا أدرى لـم ..
وابتلعت دموعى .. كما هى العادة دائما ..)
صعدت الى أمل : معقول لا تريدين السباحة .. عنـدى
مايوه لك « جديد .. مازال مغلفا .. وجدتنى أضـــعه فى
حقيبتى ـ من باب الاحتياط

ـ كنت اتمنى يا أمل والله ...
ـ ماذا جرى ؟ .. أنت تقاومين الماء ؟ .. أو ماذا يغريك
بالبقاء ؟ ..
ـ أريد أن أستريح استعدادا للمسرحية ..
ـ وأين نظرياتك عن الاسترخاء فى الماء .. ولعبتك المفضلة.
وبالنسبة لى .. هى خير لأعود وذهنى صافيا ..

تكرر النداء مرة أخرى باستعداد اللنشات للمغادرة ··
أسرعت أمل فى النزول وتتبعتها شلة الشـــباب ومنى ··
عرفتهم من صياحهم ومرحهم ·· تنبهت بعد فترة أن الميكرفون
لا يزال ينادى ·· وكأنه يسأل : « ألن يتقدم أحد »

صعدت الى السطح بدل الذهاب الى قمرتى ·· أرقب
الزوارق وهى تبتعد ·· منى وفريقها صدر عنهم ضجة هائلة
·· الدكتور يبدو مرحا ·· رفع وجهه الى أعلى ولوح لى ··
حييته مودعة ··

جاء الريان ·· وأطل بجانبى ·· والزوارق تصـــغر
وتبتعد ··

ـ ها قد دخلت ساحة السباق ·· مع الخيول البيضاء ·
ـ قال الدكتور زهران ـ نحن فى سباق مع الزمن ـ
حددت لهم قبل الغروب موعدا ··
ـ برنيس بـــلاج طبيعى ·· ذهبى ناعم ·· وقت رائع
يمضونه هنك مع الطبيعة الساطعة ··

واثقة أنت أنك لا ترغبين فى السباحة ؟
ـ مع أنى قاومت منذ أيام فكرة مجنـــونة ·· أن ألقى
بنفسى من فوق مركبك لشدة اغراء الماء ··
ـ لو فعلت لالقينا وراءك بزهرة ·
ـ ولم ؟ ·
ـ نقول وداعا ولترقدى بسلام ·· فلا سبيل لانقاذك ··
ـ لن تبذل أى محاولة ··
ـ القرش يتبعنا فاغرا فاه ـ كما ترى ··
ـ ستكتب لى النجاة ـ مثل يونس الرسول ··
ـ يلزمك معجزة ·

(معجزة النجاة من بحر الغرق ·· ابتلع فرعون وجنده ·· استكبر وأبى ·· وفى كل زمان تعاد دورة الحساب ·· وتصدق نبوءة الاستاذ قالها لنا وأرقنا بها ··

ونحن لا خروج لنا ·· يجب الانسحاب الى الداخل ·· التحصن بالداخل الرحيم وتصنع سفينة او زورقا للنجاة)

كان الليل غاشيا وصوت أبى يشرق بالدموع ·· يدعو أسماء يتضرع بها ··

« يا من أنجيت ابراهيم الخليل من النيران ·· ونوح من الطوفان ·· ويونس من قلب الحوت ·· ولوطا من القرية الظالم أهلها ··

واستمعت ليعقوب فى شكواه ورددت اليه يوسف ·· وارتد مبصرا ·· »

قلت : من كل هؤلاء يا أبى ··

قال : أنبياء أنقياء ·· احيط بهم ·· وكان ثباتهم هو المعجزة ··

تنبهت الى أنه يسألنى : لم أتلق دعوة لحضور المسرحية الليلة ··

– أنت صاحب السفينة والدعوة ··

– ولم جعلت بطلك بحارا ياترى

– مهنة فائقة ·· تحقق مجد الفراعنة والعرب ·

وربما لأنى كنت أحلم بالبحر دائما ··

اعتدل وقال : تصورى عندما كنت صغيرا فى القرية كنت أحلم بركوب البحر ··

– لم أر بحرا فى حياتى كلها ·· لكنه نوع من الأشواق الغامضة ربما فقط صادفت رسما فى كتاب مدرس قديم لاحدى

سفن الملكة حتشبسوت الى بلاد « بنت » • والبحارة الفراعنة فى صف بمجاديفهم ••

لم أنس هذا التصوير أبدا وانطبع داخلى •• كنت أرانى واحدا منهم •• أجدف وأعتلى الصارى عاليا ••

مرة واحدة أخبرت أمى بهذا الحلم فوجلت واحتضنتنى بشدة كمن تدرأ عنى الخطر ••

كان هناك « نشع » كبير يشق قلب قريتنا •• ومنـــادى الحكومة يهيب بالأهالى ردمه ويعد بجائزة :

وبدأت أكوام التراب تعلو فوق أماكن منه متفرقة •

وحسمت أمرى قبل أن يردموه وتضيع فرصتى •

أخذت أعوادا من الذرة من فوق السطح وجدلتها بحبال من الليف وانتقيت « جريدة » عالية جعلتها المجداف ••

وكالساحر تجمع حولى أطفال القرية •• ونادوا عـــلى أصحابنا •• زياد يصنع فلوكة يا أولاد •• وأجلستهم وأخذت أجدف فى « النشع » •

وتطاير الخبر الخطير الى الامهات داخل الدور •• وخرجن صارخات جزعات وانضممنا فى دوائر نائحـــة •• يلطمن الخدود ثم يقفزن فى الهواء ويصرخن ..

ايقاع جنائزى غريب • •هكذا كن يفعلن دائما عندمـــا يموت احد ، أمى كانت مشغولة بعملها ولما وجدت صراخا يقترب من الدار •

قالت : لابد زياد فعلها ..

وكدنا نغرق وينقلب بنا هذا الصندل العجيب فى « النشع » العميق خصوصا وقد بدأت عيدان الذرة تتشرب الماء وتثقل•

لولا أن تصرفت أمى بلبـــاقة وارسلت لى مـــن يقـــول والدك يطلبك فرسيت بهم مسرعا •

يحلم بمهنة البحار منذ الصغر . لم يكن قد رأى بحرا من قبل .. ولا عانقت عيناه زرقته .. ويتبعه أطفال القرية وينشر شراعا فى قلب نشع تطالب الحكومة الاهالى مساعدتها فى ردمه لخطورته ..

كالمصرى القديم .. أو زورق العالم النرويجى « هيردال » الذى صنعه بطريقة بدائية وعبر به الاطلنطى ليثبت أن تلك هى احدى الوسائل التى انتقلت بها الحضارة المصرية القديمة عبر المحيطات الى المكسيك مثلا وعلموهم بناء الاهرامات والمعلومات الفلكية ..

كيف فعلها الفتى تلقائيا . وقبل « ثور هيردال » وانسكب عشق البحر القديم الى قلبه الصبى) .

لم أدر كم من الوقت استغرق شرودنا (لكنى أعرفه متيقظا دائما .. كأن داخله ساعة دقاقة .. أو بوصلة حساسة تحدد لـه التوقيت والاتجاه ـ قال لى فى بداية الرحلة أعامك كنجمة ميناء .. فى اتجاهك دائما) .

قال : حان موعد عودتهم

نبهت عليهم جيدا « نريد الخروج قبل الغروب »

ـ واذا تأخروا

ـ أطلق صفارات السفينة .. أزعجهم .. أفزعهم ويهرعون ..

ـ أعرف مدى دقة الدكتور زهران فى المواعيد والالتزام بكلمته .. لابد ويظهر زورقه فى المقدمة .

قال ـ جميل أن يكون الانسان بعيدا . ربما فى قارة أخرى أو بحور مغرقة .. ومع ذلك نعرفه .. ونثق فى حركته .

قلت بسرعة : الدكتور زهران هو هذا النوع النادر من الرجال .. ونحن طلبته عندما كنا نقرأ خبرا فى جريدة

محلى أو عالمى . .نعرف ماذا سيقول لنا فى الدرس .. نعرف تعليقه وتفكيره ..

يلوح فى الأفق اللنش .. لابد به أستاذنا الغالى .. وقد تمتع بسباحة رائعة .. سابق بها الخيول البيضاء والزمن. وجدناهم يلوحون لنا .. ويقولون كلاما لا نسمعه نظـر وقـال :

– حركتهم غير طبيعية .. حدث شيء ..

(أتشم رائحة خطر ؟) .

اقتربوا أكثر .. مازالوا يرفعون أذرعهم وأصواتهم .. صورة نداء واستغاثة تبدد مع الهواء . أمـــر الطبيب أن يستعد . .والونش يحمل زورقه قبل أن يصلوا – اقتربوا أكثر .. التقطنا صيحتهم .. « دكتور » .. يريدون الطبيب بالفعل ماذا جرى ؟

جرح أحدهم . حادث .. سمكة سامة ربما ..

شخص مسجى فى قاع الزورق . يشيرون بجنون ولهفة وجزع أطل عليهم .. فوق ظهر الطبيب المنحنى على الكيان المـمـــدود .

قال : انتهى

– مـــات ؟

من .. كيف عرفت . .من هو ؟

رفع الطبيب رأسه : « لا فائدة »

هكذا قالوا لنا كانت ميتته .. وقف على الشاطىء .. يتعجل العودة – قبل الغروب – فتح ذراعيه تحتضن السفينة والافق ..

الشمس الواعدة . .قدم على الشاطىء .. وقدم على القارب . .وعند الحدود مات .. الدكتور زهران ..

معلمنا واستاذ جيلنا ــ ومن كان ثباته أمام المحــــن ــ معجزة لنا ــ « جاءنا الموت في عرض البحر » ··
ظل يحوم ويجدف ·· ويعلو ظهر أحصنة ســوداء قاتمة حتى خطف منا الفارس القائد ·· الفنار الشامخ لسبجنا ·· كان الموت يتبعنا ·· وكان الموت حاضرا ·

كأننا نقف على حافة مدينة مسحورة ·· ميناء بعيدة من العالم الآخر ·· تحول البحر فجأة الى مكان يبعث علــى الاختناق ·· السماء والمياه والشعاب مشبعة بلون الحزن والاكتئاب ·
لم يكن حقيقيا بالتأكيد المشهد الذى نرقبه · !
أخذت الرافعة تئز وتدور ·· عيونها تنزف دموعا زيتية مثقلة وزورق الغروب يصعد ببطىء ·· معلمنا وصــــديقنا بداخله ·· مسجى فى القاع ·· وجهه مشرع الى السماء ·· والبحارة والطبيب محنين رءوسهم ·
ــ عاد فى موعده ·
وبفارق بسيط ·· جاء ميتا ·· حافظ على الموعد والدقة والكلمة حتى النفس الأخير ··
والموت يوقظ الأحزان كلها ··

صرخ بلال عندما رأى طرف حزام المايوه مرتفعا وقال :
ــ مثل السكين الذى غرسوه فى بطن والدى ··
جاء رجال ثلاثة عند الغروب ·· نادوا عليه ·· أســرع وغطانى بكومة من الاعشاب وأغصان الزيتون ·· كلمــات قليلة قيلت لم أسمع صوته ·· غرســوا الســكين فى بطنه وانصرفوا ··
استدار ·· رمق كومة العشــب وأنا بداخلها بكل اللهفة والحب ثم وقع ·· وجهه الى السماء ·· ومقبض الخنجر فى

بطنه .. وآه يا أبى .. وآه يا أبى مكتوب على الفلسطينى أن يفقد الحب والاحباء مئات المرات دائما ..

تدفقت الدموع .. واصطف الجند فى صف مهيب ..

عندما لامس اللنش سطح المركب غطاه طارق بملاءة بيضاء وانكفأ يبكى ..

بكاء ونشيج يتصاعد من كل الحنايا والأرجاء .

الابراهيمى مثل طفل صغير يرتعد .. وأمل منهارة تجثو على ركبتها .. ومنى تمسك بالحاجز وتصرخ فى البحر بجنون .. يتبدد مع الهواء عويلها ..

رفعوه بمهابة واجلال وانصرفوا به ..

أمضينا ليلة محزونة .. طالت واستشرت وأنشب الالم مخالبه بين جنوبنا .. بقينا معا .. والموت يرقد فى فجوة مروعة ..

قال الابراهيمى : رأيت مئات الرفاق والأصدقاء يقتلون أمامى .. فى هجمات غادرة .. حتى البنت التى أحببتها .. وبقيت من أجلها راهبا .. صرعتها بين ذراعى شظية عاتية ..

لكنى أموت هذه المرة بينهم .. وتتمزق أوصالى مرة أخرى .. واقف مصلويا داخل موتهم هو بالفعل ابونا كلنا .. ابو المسرح وأحد الذين تدين لهم الثورة والفن فى بلادنا .. مفكر ثورى .. ومصدر الهام لعملنا يخطفه الموت هكذا من بيننا - وهو يمرح للمرة الأولى منذ زمان طويل ..

لم يستطع التماسك فولى مسرعا يبكى لنفسه .. انا ايضا أود الانزواء بعيدا مع دموعى - وكما لم أفعل من قبل .

(اقاوم البكاء دائما .. أعتبره مظهر ضعف لا يليق بمقاتله - يتحرق حلقى بالدموع .. وتغشى الحدقات ..

لكنى أبتلعها ·· أخبئها بين جوانحى – وعبثا يشــاهدون « الخوف » أو الضعف داخل عيونى كمــا يقول شـــاعرنا ويرددها لنا أستاذنا – نعود بدونه هذه المرة ·· ترى كيف يكون شكل القاهرة ·· والمسرح ·· والجامعة ؟)

فجأة عاد الينا الابراهيمى كالملدوغ ·· « أين الربان » ··

يقول عادل : سيلقون بالجثمان فى البحر ··

– لا أكاد أصدق ··

قال حسان : لسنا فى أعالى البحار ·· وما أظنه يفعل بنا هذا أبدا ··

(هى المرة الأولى التى نســـمع فيها صـــوت حسان ·· مغســـولا بالدموع ·· مترقرقا ·· رســـام متميز ومهندس الديكور ·· كان رفيق الدكتور فى زنزانته ·· من سخرية الاقدار

ان الدكتور كان يوصينا به دائما ·· يقول عنه : خرج من اتون العذاب صامتا ·· يرسم فقط ··

يؤكد معلمنا أن علينا تحمله ·· فقد تحمل عنا العذاب بشـــجاعة نادرة ·· نحيطه بالحب حتى نحقق له التـــوازن النفسى والسلام الداخلى ثم يبدع فى فنه فيرسم لمصر لوحات خالدة ··)

قال طارق بجزع : ما أظن الربان يلقيه أبدا فى البحر – مهما حدث – كما أنه لم يتبق على الرحلة غير أسبوع فقط ·

ردد بلال مناجاة حارقة ·· من يدرى ماذا يحدث فى هذا الأسبوع الاخير من مايو « آيار » فى العام السابع والستين بعد الألف والتسعمائة سنة !

– تاريخ ينضم الى مآسينا القومية والشخصية الفاجعة

(الدكتور يقول دائما « احذروا الغم والاحزان داخل بلال ـ قد يجعله يطلق النار فى كل اتجاه ··)

عاد بلال يقول :

ـ نعود فى بدء « حزيران » مهزومين

صرخت أمل ثائرة :

ـ بلال أرجوك ·· أقاطعك ان نحت بهذا الشـــكل ·· لا تضاعف مصابنا ·· فقدنا حبيبنا ومعلمنا ·· ولكن هل نفقد انفسنا ؟

أفاقتنا صرخة أمل ·· كنا مذهولين ·· لا نكاد نعى ·· زلزلت الصرخة أعماقنا ·· استيقظت روحنا ·· كانت كمن استلمت قبسا مضيئا من المسرح ·· ووصلت بنا الى ذروة منيرة ··

(كانت تستعمد لأداء دورها فى المسرحية الليلة الحزينة الماضية ·· نسينا المسرحية بين الحدث الذى الم بنـــا ·· تخلف القاضى الذى ينشد العدل دائما والقضاء على الأعداء بالداخل والخارج معا ·· من يذكر المسرحية التعســـة ·· بدد الحزن أهل القرية ·· لا بل وجد المصاب بينهم)

جاء الابراهيمى الى جانبى ·· همس ··

ـ تعرفين بالطبع أن « الدكتور » ليس بالفرقة ·· وضعه الربان فى ثلاجة خاصة ·

كدت أتجمد من الحزن والفـــزع ·· بدأت فعلا ارتعـــد ولا أسيطر على حركة فكى ويدى ·

انزعج وقلق من أجلى : تماسكى أخت نور ··

ظهر الربان ·· وجهه جاد ·· صارم أقبل علينا ـ وجه حديثه الينا ـ

ـ رتبنا الامر .. واجرينا عدة اتصالات واستقر عزمنا على نقله بالطائرة .. وتم الاتصال بأسرته فى القاهرة .. ران الصمت .. وجمنا جميعا (قضى الامر) .. كنت أول من تحدث :

ـ أرجو أن تسمح لى بمرافقته

تقدم بلال .. قال بصوت متحشرج :

ـ نعم « نور » تصحبه

عاود أمل الانهيار :

ـ كان معنا دائما .. فلا اقل من أن يصـــحبه احدنا فى رحلته الأخيرة .

قال الريان بصوت حاسم « وكأنه يلقى بأوامره دون أن يكون لأحد حق مناقشته :

ـ لن ينزل واحد منكم

اعترضنا .. تداخلت الأصـــوات ـ قاطعنا الابراهيمى

ـ ارجوك سيدى لا تحرمنا هذا الشرف .

ـ اصحبه بصفتى الشخصية .. ومندوبا عن الثورة .. ونائبا عن حكومتى ..

ـ جئت اخبركم بالقرار فقط ..

نظرت اليه بغضب (**لكل عيبه بلاشك .. أظنه لا يستطيع ادراك عواطفنا فى هذه اللحظة .. ومدى ارتباطنا به**) ..

قال بصوت تشوبه سخرية مخففة ـ هكذا خيل الينا ـ

ـ الحب والوفاء له يقتضى منكم جميعا اكمال المهمة التى جاء من اجلهـــا .

كأنما صدمة كهربائية مست أعصابنا .. مسنى الغضب. ايام قاتمة بلاشك فى انتظارنا .. يعلمنا الريان واجبنا .. مافيها أن انزل ويبقى الآخرون ـ يكملون المهمة ـ هكذا فى

ساعات قليلة نفقد احباءنا مرة بالموت .. ومرة بجمـــود العاطفة وانعدام المشاركة) ..

كنت فى حالة من الأسى لا حد لها .. يخنقنى الندم .. لقـد تركته لمتعة السباحة .. رغم الحاجة على بالنزول معه .. كان مرحا ويود صحبتى .. ربما تطلع الى ما وراء الأفق ..

ربما ترامى بصره الثاقب عبر الموج .. وراى « الموت » راكبا جواده ويخب فى البحر .. يقترب .. أشعر بذنب عظيم.

(والآن ياتى صديقنا الربان ويمنعنى من مصـــاحبته ليخف ما بى من الم او تزيد حرقتى ..)

قال بنفس النبرة « المحايدة » — وكأنما أطلع على افكارى
— السيدة نور بالذات ستبقى ..

(ازداد غضبى ماذا يظن نفسه .. وهل هذا اوان المزاح ؟ او المرح .. قلت منذ البداية انه بعيد عن حزننا ..)

سألت بخشونة : وتظن ان بوسعك اجبارى على البقاء ..
— سيحدث ..

عدت متنمرة : وهل لى ان أعرف كيف ..

(نظرته تضج بالابتسام .. والتحدى .. والثقة ..)

— اتفقنا منذ البداية أن لك روح بحار ..
« الرحلة يجب أن تستمر مهما حدث » ..
من قوانين البحر الا تتخلى ابدا عن مركبك ..
ودرس البحار الاول أن يكون على استعداد دائما ..

(اعرفها تلك القوانين البحرية المقدسة .. او سد دستورها قلبى .. اعيد تلاوتها مع آيات البحر والموج وسفن النجاة .. ودعاء يونس ونوح ..
احفظها وادرسها فى تعاليم الربانية العـــرب العظـــام .. وقصص الملاحين القدماء .. مغرمة بالبحر انا ..

فى البحر ـ كما فى الحياة ـ يجب أن تكون على استعداد دائما ـ لأية حركة .. مواجهة .. مفاجاة ..
المهم الا ياخذك شيئا على غرة .. او يدعك فى غمرة .. او تكون لحظة من الغافلين ..
تكون كالربان .. عالى الهمة .. متيقظ الحواس .. شجاعا وحاسـما) ..

قلت بهدوء : ولكن الربان لدينا فى المسرح ـ هو المخرج ـ وساتركه مع أمل .. لينقذ المسرحية وهدف ايجارنا ..
ـ أمل لن تكون كما يجب ..
انسيت المسرحية .. تحولت الى قضية .. والسؤال فيها يعنينا جميعـا ..
يؤكد الابراهيمى باقتناع :
ـ الربان زياد محق وما كان استاذنا الدكتور ليسمح أن تفشل مهمته والا تسير الخطة وفق ما أعد لها ..
بثقة يؤكد : عليكم باتباع نهج الأستاذ ..

(وتقول انك لا تعرف عن المسرح .. ورسالته .. واخطا بحقك واقول عنك جامد العاطفة .. لا تشاركنا مشاعرنا .. ادين لك باعتذار ..)
يتقدم حسان بخطى ثابتة يقدم نفسه ..
ـ انا مهندس الديكور ويمكن لمساعدى وعمـاله تركيب ما نقيم به العرض .. لذلك ارجو ان تسمح لى بمصـاحبة الجثمان نيابة عن اصدقائى ..

(يوصينا بالرسام حسان .. مرهف الحس يرسم عيـون المصريين بحيرة سوداء عميقة النور والمدى .. تحوى حنانا .. طيبة وسخرية .. وترنو الى الحلم والمستقبل ..
فقد حسان احدى كليته من التعذيب .. يوصينا الأستاذ به .

يوصينا بالحب .. يقول لنا دائما بالحب والفن نعيـــد صياغة الفرد والمجتمع .. تلتئم الجراح .. ونعاود الالتحام والمشاركة .. علينا الاهتمام بالفنان .. « بحسان » ليرسم لمصر لوحات خالدة ــ فأيامه معدودة بيننا ..

ها هو الرسام يصحبه فى رحلة الوداع .. ينوب عنـــا جميعا حدثت الشرارة المقدسة .. واندمج مرة أخرى بيننا ووحد الحزن بيننا .

جاء قائد قاعدة الطيران .. وعدد من جنوده معـــه .. واصطف بحارة السفينة ..

قضى قائد عظيم .. وجنود مصر العظام « الفلاحين » يؤدون التحية لواحد من الرواد ..

خاض معركته بحب وتضحية ومضى ..

أخذت الرافعة تدور مرة أخرى وتهبط سيورها « فى داخل يرقد الكيان المتميز .. « جثته » ..

(غريب الانسان .. من لحظة يكون اسمه انسانا .. ويكون ملء السمع والبصر .. يفرد ذراعيه كمن يحتضن السفينة والأفق معا .. وفى لحظة أخرى .. فى أقل مـــن الثانية يخرج ذلك الروح المقدس .. السر الالهى داخله .. يغادره .. فيصبح جثة .. نقول عنه هكذا ..) .

وما ان لامس الزورق سطح الماء حتى أطلقت الســـفينة صفارتها « نوبة وداع » .. عويل بصوت حاد متقطع .. يعلن عن حادث جلل وقع . وهى غير « سارنيه » الاقـــلاع المزغردة بالفرح .. صفارة غامضة معولة تنطلق ســـاعة الخطر .. عند الضباب المسدل وخوف الصدام والغــرق .

(يابحرنا الدامى .. ويا شعابا مرجانية قاتلة ويا فنارات مصر العالية .. ويا أرضنا سيناء المقدسة مات واحد منا ..

(الموت حق .. لكنا نريد ان تكون حياتنا كذلك ..)

كان على الربان انقاذ السفينة .. لايدع الأحزان تهدد مركبه ..

والرحلة والمهمة ..

الرحلة تستمر مهما حدث ..

والحياة أيضا يجب أن تستمر ..

وفتحت السفينة عيون السرعة كلها .. جرت الى البحر الطليق .. وما ان تحركنا عن مكان الحادثة .. حتى أطلق الربان موسيقى عالية ذهلنا فى البداية .. دهشنا .. ولكن الحان سيد درويش تسللت الى حنايا النفس وانتعش منا الفؤاد بلا مقاومة ..

من يقو على نغمات تصدح من جوف النيل .. والنخيل والأرض الخصبة الآسرة .. مغموسة بدم المصريين .. العمال والصنايعية .. الشغيلة والحمالين ..

نغم يطربك ويشجيك وتشعر به قوة دافعة ..

حمالين الهموم عبر الاجيال .. يزرعون الصبر .. ويستبشرون ..

وفلاحين محنيين على الارض .. يغنوا الحب وحياة قادمة ..

هل تمينا الصبر والثبات وفيه المعجزة ..

ردتنا الموسيقى الى انفسنا .. حصن الأمان .. القوى العميقة الكامنة ..

(تعامنا المسرح على انه قوة دفع للمجتمع .. جئنا به فوق السفينة لنصله بمن يعملون فى مناجمنا وحقول البترول النائية .. والموانى البعيدة النائية .. كى نحسن الأداء .. ونولد الطاقة الخلاقة ونعيد الصياغة بالمجتمع ..

ندفعهم الى ارادة الشجاعة وارادة التغيير .. نعيد للثورة نضارتها .. ونقائها ..
يجد بلال ارضا ثابتة يقف عليها ويخاطب من فوقها أمته ..) .

صمتت الموسيقى فجأة .. انقطع البث ..
بقسوة .. أخذتنا الصدمة ..
يعلن مكبر الصوت بصدور الاوامر لتغيير خط السير ..
العودة الى السويس وانزالنا ..
نبأ آخر صاعق لنا ..
لم .. ولماذا .. وكيف ؟ الأسئلة الخالدة ..
ما الخبر .. لم العودة .. وماذا حدث ..

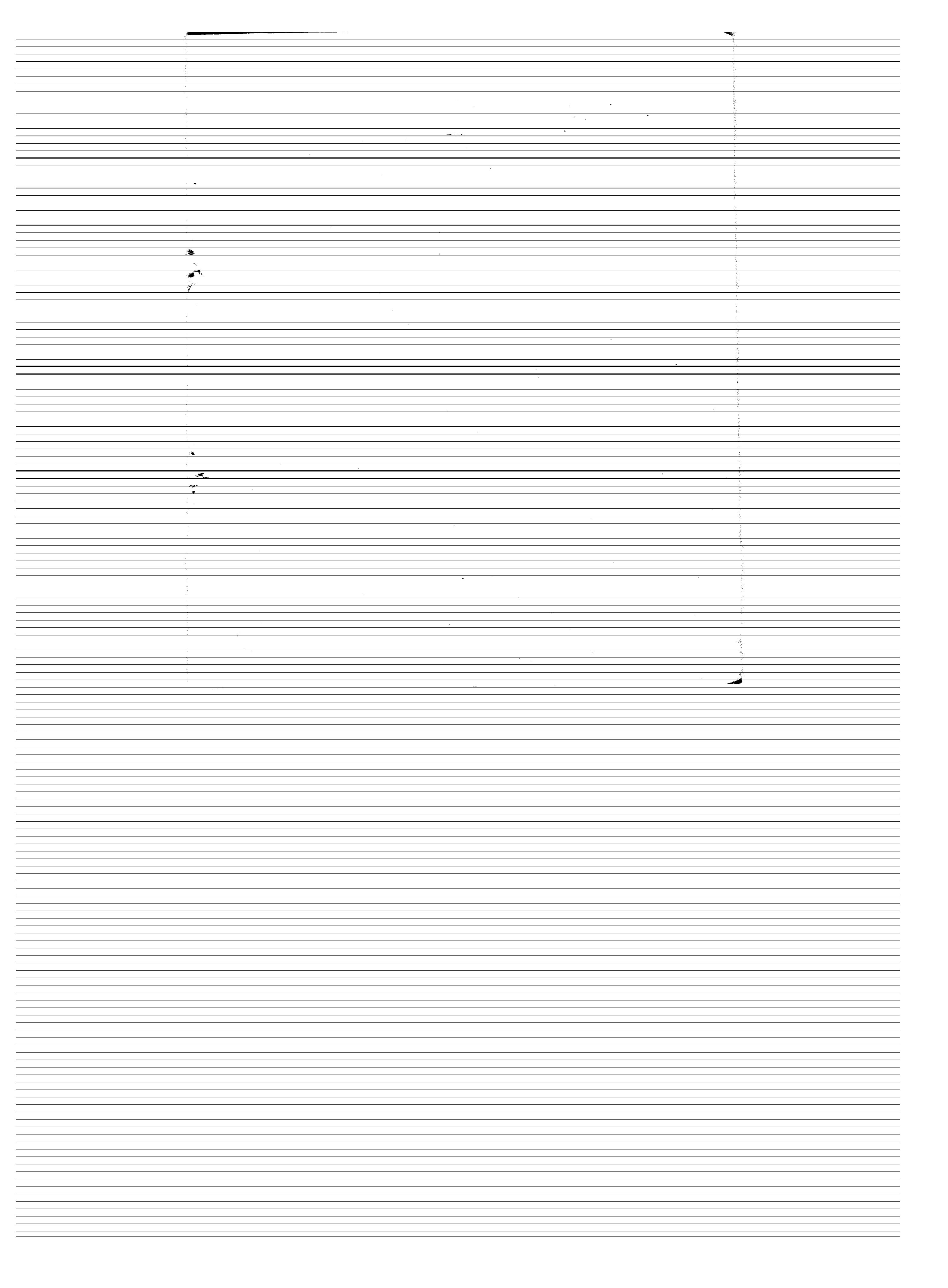
(لتتحقق نبوءة الأستاذ .. عذاب فى انتظارنا .. ظلمنا انفسنا .. نسينا الله .. شريعة الحب والعدل ..
اتاخذنا الصاعقة .. وحتى تكون عبرة لنا ..
وحتى نرى فى دم كل منا دمنا .. وفى امنه اماننا .. ولا نخرج انفسنا من ديارنا ..) .

لم يخطر على بالى ان ارى الدموع تثقل نظرته .. فى لحظة انطلقت الشرارة المقدسة وارتبط مصير اثنين من البشر ..
لم يقل شيئا .. لكن ثمة اتفاق .. وعقد موثق بيننا ..

(قدماء المصريين كانوا حكماء فصحاء عندما قالوا عن التمساح انه الرعب فى الماء ..
لست أدرى لم أذكر هذا الآن .. وتولد اللحظة الخاصة قنبلة ذرية داخلى ..
واجهنا الرعب فى الماء .. وعلى الأرض ماذا نجد فى انتظارنا ؟) ..

يهمس بلال وهو يحتضن كف أمل :
ـ قلت لكم يلوح صيف ملتهب ..
يأتي حزيران حزينا .. خانقا ..
تغضب أمل : بلال ..
يقول الابراهيمي : أيا كانت الظروف سأبقى معكم ..
أتبع منولوجي الداخلي .. ويرتفع صوتي رغما عني ..

(لنتذكر أستاذنا .. وصديقنا الربان عندما يقول لابـد للرحلة أن تستمر مهما حدث .. ولانعرض سفينتنا أبـدا « للعطب » ..
لم نعرض المسرحية .. ولكن تعلمنا درس البحـــار وخبـرته) ..



الكتــــاب الـــذهبى

النافذة التى اطـــل منها كبـــار الكتاب
فى مصـــــر والعــــالم العــــربى

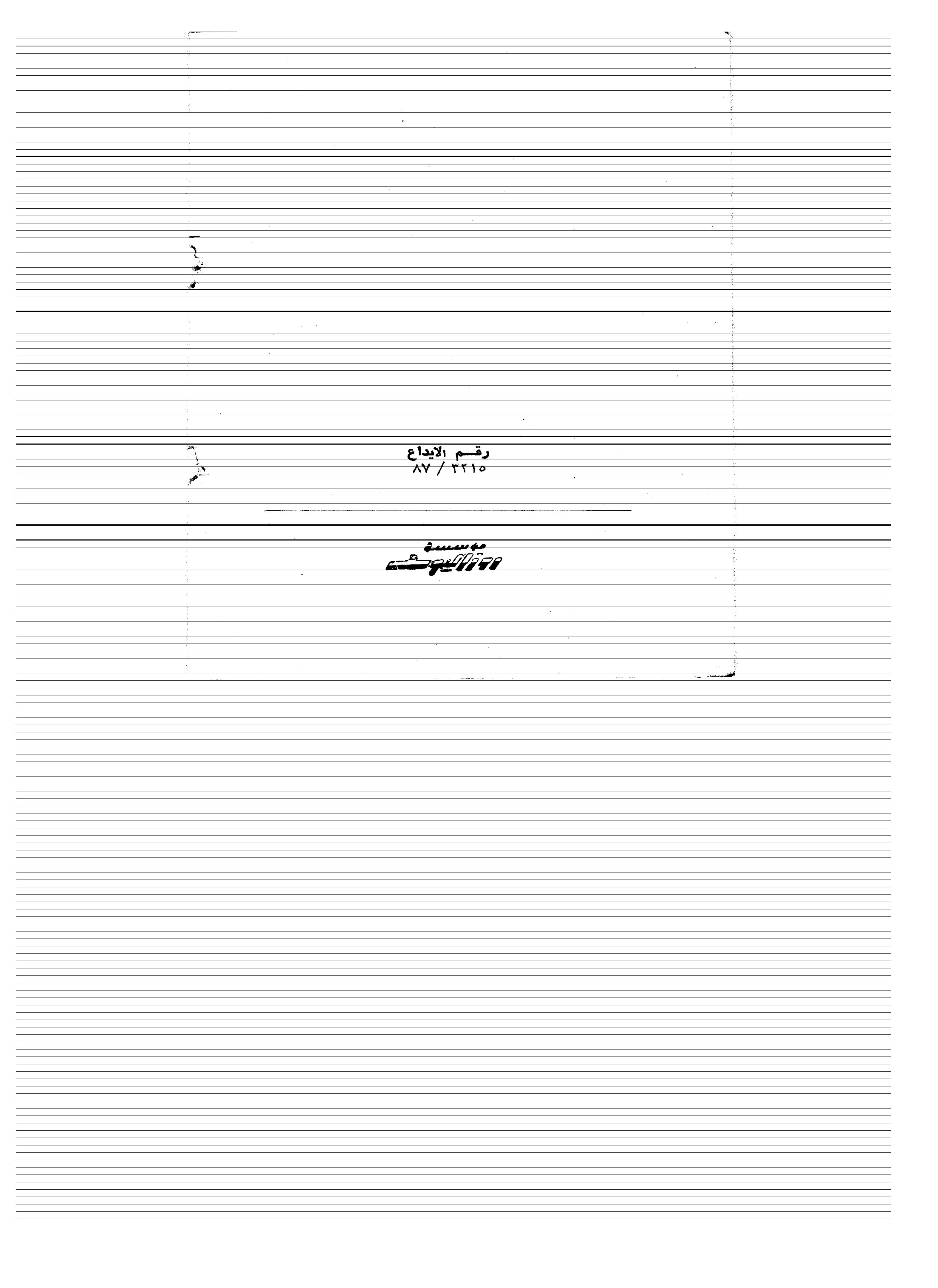
اقرأ أحـدث آخـر ما صـدر منـه :

- الحب والــــزواج ...... زينب صـــادق
- قبـــل يوم القيـــامة ...... أحمد هاشم الشريف
- العشرة المبشرين بالجنة ..... محمود البرشومى
- الفداء مــــع آلهة الصيد ...... صبرى موسى
- الرافضـــــ .... عبد الفتـــاح رزق
- أوراق أب .... عدلـــــى فهيـــم
- صفحات من تاريخ المرأة المصرية .. عبد الله امام
- اجنحة الانســـــان ...... عبد الله الطوخى

وقريبـــا

- فى البعد ... أناديك ... عبد العــزيز خميس
- وأروع الأعمـــــال للشــــــاعر الكبيـــر

فؤاد حـــداد



رقم الايداع
٣٢١٥ / ٨٧

مؤسسة
روز اليوسف